أدب الفكاهة عند الجاحظ

دكتور
أحمد عبد الغفار عبيد
جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالمنصورة

الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ — ١٩٨٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

(وما توفيقي إلا بالله)

مقدمة

لم ينل موضوع « الفكاهة » عند الجاحظ من اهتمام المحدثين مثل ماحظى به غيره من جوانب نتاجه الأدبي والفكرى المتنوع ، ولم يتناوله أحد بالبحث والتحليل كما ينبغى ، وربما كان السبب ذلك راجعاً إلى تصوّر بعضهم أن ذلك الجانب يدخل فى نطاق الهزل ، ويندرج فى جملة اللغو .

والحقيقة أن الذي يتفرّس دعابات الجاحظ ويتأمل طرائفه وفكاهاته يلمس أنه كان حكيماً فى هزله ، كما كان حكيماً فى جدّه ، وكان رائداً فى فكاهاته كما كان هذا شأنه فى معظم القضايا والموضوعات التى عرضها على عقله وعالج الكتابة فيها ؛ فلم تكن فكاهاته عارية عن الهدف أو فارغة من المضمون ، بل كثيراً ما تأتى مصحوبة بالتلميح الهادف ، أو التعريض اللاذع ، بما يجعلها تأخذ طابع المعالجات الفكرية الجادة ، والتى تسمو – فى جوهرها – على اللهو الفارغ ، أو العبث الرخيص .

فالجاحظ كثيراً ما كان يستخدم الإطار الفكاهى ليوجه نقداته الهادفة وسخرياته المرة إلى الأدواء الاجتماعية ، والنقائص الأخلاقية التى يراها فاشية فى الناس من حوله ؛ فكان يعالج نكيره لها ، ويصب نقمته عليها ، فى ذلك القالب الأدبى الرفيع ، الذى رأينا أن نطلق عليه « أدب الفكاهة عند الجاحظ » .

ويعد الجاحظ أسبق الكتاب العرب احتفالا بالفكاهة ، وحشداً لها فى ثنايا مؤلفاته ، وهو صاحب مذهب مشهور فى مزج الهزل بالجد ، والخروج بقارئه من أدق المسائل وأشدها عمقاً وتعقيداً إلى أيسر الموضوعات ، وربما استطرد به إلى شىء من النوادر الطريفة ، والفكاهات العذبة . وللجاحظ دفاع طويل

عن هذا الأسلوب فى التأليف ، وله احتجاج متكرر لجدوى تلك الطريقة ، واعتذاراته لقرائه بسبب إقحامه للطرائف والفكاهات فى أثناء الموضوعات الجادة — كثيرة ومستفيضة .

فلا غرو إذاً أن نعدّ الجاحظ رائداً للأدب الفكاهى عند العرب ، بحسبانه أول من ابتكر هذا الأسلوب المرح ، وأسبق من عنى بمراعاة ميول قرائه ، وتفنن فى إمتاعهم ، وإدخال السرور عليهم ، إبقاء على نشاطهم وإبعاداً للملل والسأم عنهم .

حقًا لقد عرف الأدب العربى من العلماء والرواة قبل الجاحظ وفى عصره من عنى بالملح والنوادر وأكثر من رواية الطرائف والفكاهات ، لأن العرب لم يفقدوا روح المرح والميل للفكاهة على امتداد تاريخهم المعروف لنا ، ولكن عناية الجاحظ بالفكاهة واحتفاله بعناصرها وإتقانه لصياغة ما يسوقه من الطرائف والملح تفوق ما عرف عن غيره من الرواة . وقصارى ما نريد تقريره هنا هو أن الجاحظ أول من عالج الكتابة فى الفكاهة سواء أكان حاكيًا لفكاهات وطرائف شاهدها أو سمعها أم كان منشئاً لعمل أدبى فى إطار فكاهى .

وحتى تلك الفكاهات التى اقتصر دور الجاحظ فيها على الرواية يبدو فى سرده لها بارعاً غاية البراعة ، وذلك لإحكام صياغته لها ، واختياره ذات مغزى ودلالة ، ويتضح ذلك جليًا عندما نوازن بين الطرائف التى رواها الجاحظ ، وبين روايات غيره من الأدباء لها ، فسنلمح بوناً شاسعاً فى عرض الطرفة وأسلوبها والإعجاب بها من القارىء ، على الرغم من أن مضمونها واحد ، ولكن يمتاز الجاحظ بأنه يشيع فى الطرائف التى يرويها روح المرح التى عرف بها ، وأسلوب التهكم والسخرية ، الذى يجعل لفكاهاته مذاقاً خاصاً يميزه عن غيره من الكتاب .

ولقد كان النزوع إلى المزح والدعابة أحد السمات البارزة فى شخصية الجاحظ، وكان – كما يبدو – طبيعة فى تكوينه النفسى ، فليس الجاحظ ممن يتظاهرون بالبشر وخفة الروح ، ولم يكن تملئه بالطرائف والفكاهات من قبيل التظرف المصطنع أو الرياء المتكلف ، بل نستطيع أن نؤكد أنه كان يروى الفكاهات ويرددها لأنها متوائمة مع طبعه ، ولأنها تشبع ميلا غريزيًا فيه .

وشواهد نزوعه إلى المرح والمعابثة كثيرة ، والدلائل على ذلك مستفيضة منها ما حكاه فى البخلاء[1] فى سياق وصفه لبخل أبى محمد الحزامى قال :

« وكنا مرة فى موضع حشمة ، وفى جماعة كثيرة ، والقوم سكوت ، والمجلس كبير ، وهو (يقصد الحزامى) بعيد المكان منى ، فأقبل على المكى ، فقال – والقوم يسمعون – : يا أبا عثمان من أبخل أصحابنا ؟ قلت : أبو الهذيل . قال : ثم من ؟ قلت : صاحب لنا لا أسميه . قال الحزامى من بعيد : إنما يعنينى ».

وفى موضع آخر من البخلاء[2] وفى معرض الحديث عن طرائف محمد بن أبى المؤمل فى البخل يورد الجاحظ خبراً عن معابثة اشترك فيها مع السدرى من جانب ضد ابن المؤمل من جانب آخر ، وشواهد أخرى كثيرة ستأتى فى موضعها من هذه الدراسة .

والحق أن فكاهات الجاحظ ترتفع فى قيمتها وفى دلالتها عن أن ينظر إليها على أنها مجموعة من الملح الطريفة أو النوادر المضحكة أو الدعابات المسلية ، بل إنها تسمو فى كثير من صورها لتغدو قطعاً أدبية شيقة ، وصوراً فنية معبرة ، تحتشد فى جوانبها القيم الموضوعية والتعبيرية ، وتنطوى على معارف

---

(١) ص ٦٤ بتحقيق الدكتور طه الحاجرى ط دار المعارف السادسة .
(٢) ص ١٠٠ .

وفوائد علمية وأدبية وتاريخية على قدر كبير من الأهمية ، بالإضافة إلى ما فيها من تصوير دقيق لقطاعات عديدة من المجتمع فى عصر الجاحظ وتحليل كثير من نوازع النماذج الإنسانية التى تصفها وتحكى طرائفها . ومن هذا الإدراك لأهمية الموضوع والاقتناع بقيمته رأيت أن الفكاهة عند الجاحظ قمينة بأن تبحث وتفحص ، وأن تلقى الأضواء على ظواهرها وسماتها ، وتكشف لقراء العربية خواصها ومراميها على أساس أنها لون طريف من ألوان الأدب العربى ، سبق الجاحظ إلى حذقه ، وبرع فى إخراج طائفة من روائعه لا تزال أمثلة تحتذى ، ومعالم يشار إليها كلما ذكرت موضوعاتها مثل « البخلاء » ، و « التربيع والتدوير » وغيرهما ، حتى غدا الجاحظ أستاذ الأدب الفكاهى ، وفيلسوف التصوير الساخر فى أدبنا العربى غير مدافع .

هذا ، وثمة مسألة أود أن ألفت القارىء إليها وهى أننى اجتهدت فى تحليل فكاهات الجاحظ واستنباط خواصها ومراميها بعيداً عن الأفكار السابقة ، وكنت أضطر فى بعض الأحيان إلى نقل فقرات من أقاصيصه المرحة أو تصويره الساخر وطرائفه الهادفة للاستدلال على ما أذهب إليه ، وآثرت هذه الطريقة حتى يكوّن القارىء تصوّراً صحيحاً للظاهرة التى ألفته إليها ، أو الحقيقة التى أدله عليها ، بدلا من أن أحيله على هذا الكتاب أو ذاك من كتب الجاحظ فأكون قد فوّت عليه الاستفادة بما أقدمه .

وأرجو أن أكون قد وفقت إلى ما يجلى حقائق هذا الموضوع ويضيف للبحث الأدبى ما يعود عليه بالنفع والفائدة ، وبالله التوفيق ؟

المؤلف

من الجاحظ[1] ؟ :

وأرانى مضطراً إلى أن أعتذر للقارئ العارف بالجاحظ ، الملم بمكانته وموضعه بين أعلام الفكر والأدب ، وذلك بأن أستبيح لنفسى أن أعرّف به لمن لا يعرفه ممن عسى أن يقع هذا الكتاب بأيديهم وتطيب لهم قراءته ، وحسبى أنها إلمامة عاجلة وإشارة موجزة .

الجاحظ هو : أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ، ولد بالبصرة فى حدود سنة ستين ومائة للهجرة ، وتوفى سنة خمس وخمسين ومائتين ، نشأ فى أسرة فقيرة ، وكان عليه فى صباه أن يتكسب ليعيش فكان يبيع الخبز والسمك بأحد أنهار البصرة ، وكان مع فضائله دميماً قبيح الشكل ، لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، أى نتوئهما .

أما ثقافاته ومعارفه فكانت كثيرة إذ أنفق سنوات طويلة من حياته التى امتدت قرابة قرن من الزمان فى تحصيل الأخبار والعلوم ، وكان أديباً كاتباً راوية ناقداً .

حدث أبو هفان قال : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .. »[2] .

---

(١) من أبرز ما ألف عن الجاحظ فى العصر الحديث ما كتبه الأساتذة : طه الحاجرى ، وحسن السندوبى ، وأحمد كمال زكى ، وحنا الفاخورى ، وشفيق جبرى ، و « شارل بلا » ، ومحمد عبد المنعم خفاجى ، ووديعة طه النجم .

(٢) معجم الأدباء ج ١٦ ص ٧٤ .

اطلع الجاحظ على جانب كبير من معارف اليونان والفرس والهنود ، وتعرف على علومهم وفلسفاتهم ، واستوعب كثيراً منها ، ومزجها بمعارف العرب وعلومهم بحيث صارت مؤلفاته أشبه بدوائر معارف فى الموضوعات التى يبحثها ، ومع أنه لم يتخصص فى علم من العلوم المعروفة فى عصره ، فقد وعى روحها ووقف على حقائقها ونظرياتها بحيث أمكنه أن يعالج قضاياها بأبرع مما يعالجها المتخصصون فيها والمتوفرون عليها .

اعتنق الجاحظ أفكار المعتزلة ، وتتلمذ على أعلامهم كأبى الهذيل العلاف ، وأبى إسحاق النظام ، ثم صار الجاحظ بعد ذلك قطباً من أقطاب المعتزلة ، وصاحب فرقة من فرقهم نسبت إليه فعرفت بالجاحظية .

أما مؤلفاته فكثيرة ومتنوعة ، وإن كان جلها قد ضاع ولم يصل إلينا إلا القليل ، وربما أقل القليل ، ومع ذلك فإن فى الذى وصل إلينا من كتبه أصدق دليل على عبقريته ، وقد أحصى له ياقوت الحموى[١] قرابة ثلاثين ومائة مؤلف ، وذكر سبط بن الجوزى أنها تبلغ ستين وثلاثمائة مصنف[٢] .

وأشهر ما بقى له مما هو متداول بين المحدثين كتاب « البيان والتبيين » فى أربعة أجزاء ، وكتاب « الحيوان » فى سبعة أجزاء[٣] ، وكتاب « البخلاء » ومجموعة رسائله .

---

(١) معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٩

(٢) نقلا عن أدب المعتزلة ص ١٨٤

(٣) وهما بهذا الوصف منشوران بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

الفصل الأول

الجاحظ وفلسفة الفكاهة

كرّر الجاحظ القول في مواضع متعددة من كتبه ورسائله حول الضحك والفكاهة ، وأفاض في بسط الأدلة من العقل والمشاهدة على أهمية الضحك للإنسان ، وحاجة النفس والجسم إلى الاسترواح بالهزل ، والتسلي بالمزح ، تخفيفاً لأثقال الجد ، وعوناً للمرء على معاودة النشاط ، والاستعداد لتحمل تكاليف ما يناط به من مسئوليات ، وأكد الجاحظ على ضرورة ذلك لمن يضطلعون بأنشطة عقلية كالعلماء وأهل البحث والنظر .

ولقد عالج الجاحظ موضوع الفكاهة معالجة جيدة ، وسلك في بحثه لظواهرها وأسسها نفس المنهج الذى انتهجه فى معالجة القضايا الفكرية الجادة ، وهو منهج قوامه استعراض الظاهرة موضع البحث من كافة جوانبها ، وعرض مختلف الآراء حولها ثم الخروج بالرأى الذى يختاره ويرجحه .

ونستطيع أن نقرر فى اطمئنان أن ما تحدث به الجاحظ عن المزح والفكاهة يمثل ما يصح أن نطلق عليه « فلسفة الفكاهة » فى تراثنا العربى ، وهى فلسفة تضع الجاحظ فى مصاف كبار المفكرين الذين درسوا ظواهر الفكاهة قديماً وحديثاً .

ويهمنا فى هذا الفصل أن نلخص أبرز الأفكار التى قررها الجاحظ فى حديثه عن المزاح والضحك ، وما تنطوى عليه من إدراك واع لجوانب

العالم النفسى للانسان ، مع الإشارة إلى توافق بعض هذه الأقوال مع ما قرره الباحثون فى علم النفس الذين تحدثوا عن « سيكاوجية » الفكاهة والضحك .

حاجة الإنسان إلى الضحك :

يرى الجاحظ أن لا غني للانسان عن الضحك ، ويقرر أن للمزاح دوراً حيوياً فى إحداث التوافق النفسى الذى لابد من توافره ليشعر الإنسان بالراحة، وأن شأن الضحك فى هذا شأن غيره من العوارض السلوكية التى تصاحب الانفعالات المختلفة . يقول فى « التربيع والتدوير » :

« ولوا ستعمل الناس الدماثة فى كل حال ، والجد فى كل مقال ، وتركوا التسمّح والتسهيل ، وعقدوا فى كل دقيق وجليل ، لكان الشر صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم ، ولكن لكل شىء قدر ، ولكل حال شكل. فالضحك موضعه كالبكاء فى موضعه ، والتبسّم فى موضعه كالقطوب فى موضعه »[1] .

ويقترب الجاحظ فى هذا القول من « فولتير » الذى يقول :

« لو لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس أنفسهم ، فويل للفلاسفة الذين لا يبسطون بالضحك تجاعيدهم ؛ لأن العبوس فى نظرى مرض عضال »[2] .

---

(١) رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ٣ ص ٧٩ .

(٢) نقلا عن كتاب « سيكاوجية الفكاهة والضحك » للدكتور زكريا إبراهيم ص ١٢٦ .

ويعرض الجاحظ فى افتتاحية كتاب « البخلاء » للضحك مبيناً أهميته فيقول :

« ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبنى : كأنه يضحك ضحكا ، وقد قال الله جل ذكره : (وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيي) ، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمنّ على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موضعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شىء فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ؛ لأن الضحك أوّل خير يظهر من الصبى وبه تطيب نفسه ، وعليه ينبت شحمه ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته »(١) .

ويتضح من هذا النص أن الجاحظ يفطن لأهمية الضحك ، وأنه من خواص الإنسان وفى أصل طبعه وأساس تركيبه ، ويستدل بالآية الكريمة على أن الضحك قد سيق فيها مقابلا للحياة ، بحسبانه دليلا على ارتياح النفس ، وسلامة الجسم ، واكتمال النشاط ، وهذه ــ بلا ريب ــ أهم الأسس التى بها تكتسب كلمة الحياة مضمونها الصحيح ، كما أن البكاء وضع فى الآية بإزاء الموت لأن الباكى ــ غالباً ــ يكون مكتئب النفس ، معتل الروح ، ضائق الصدر بالحياة ، منصرفاً عنها ، كارهاً لها ، وحاله هذا ضرب من الموت ، لأنه عطّل فيه ما به قوام الحياة .

(١) البخلاء ــ تحقيق الدكتور طه الحاجرى ص ٦ .

الاعتدال فى الضحك :

والجاحظ وإن كان يولى الضحك أهمية خاصة ، ويقرر ضرورة الأخذ منه بمقدار ـ فإنه لا يوافق دعاة البطالة ، وأصحاب اللهو الفارغ ، وله فى ذلك رأى سديد ، وازن فيه بين الجد والمزح ، وقرر أن العاقل ينبغى أن يجدّ فى مواطن الجدّ ، ويمزح فى أوقات المزح ، وقد عرض الموضوع برمته فى رسالة « التربيع والتدوير » وساق حجج أنصار المزح ، وحجج الذين عدلوا بين المزح والجد ، على طريقته المألوفة فى تناول القضايا التى يعرض لها من جوانبها المختلفة ، ثم ساق فى أعقاب ذلك رأيه الخاص . يقول :

« وقد ذهب الناس فى المزاح فى مذاهب متضادة ، وسلكوا منه فى طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان . . . فأما المحامى عن الهزل والمفضّل للمزح فإنه قال : أول ما أذكر من خصال الهزل ، ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال ، وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل الحاجة ، والمزح لا يكون إلا من فضل الغنى ، وأن الجد نصب والمزح جمام[1] ، والجد مبغضة ، والمزح محبة ، وصاحب الجد فى بلاء ما كان فيه ، وصاحب المزح فى رخاء إلى أن يخرج منه .

والجد مؤلم وربما عرّضك لأشد منه ، والمزح ملذ وربما عرّضك لألذ منه ، فقد شاركه فى التعريض للخير والشر ، وباينه بتعجيل الخير دون الشر . . .

وأما الذى عدل بينهما فإنه زعم أن المزاح فى موضعه كالجد فى موضعه . . .

---

(١) الجمام ، كسحاب : الراحة .

ولكل شيء موضع ، وليس شيء يصلح في كل موضع . وقد قسّم الله تعالى الخيرة على المدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة . . . وسبيل المزح والجد كسبيل المنع والبذل ، وعلى ذلك يجرى جميع القبض والبسط .

. . ثم يخلص الجاحظ إلى بيان رأيه في الجد والمزح فيقول :

« ونحن نعوذ بالله أن نجعل المزاح في الجملة كالجد في الجملة ، بل نزعم أن بعض المزح خير من بعض الجد ، وعامة الجدّ خير من عامة الهزل ، والحق أن ينضح[1] عن بعض المزح ، ويحتج لجمهور الجد . . .

وقد مزح رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وقال عمر — رضوان الله تعالى عليه — : إنا إذا خلونا كنّا كأحدكم . وقد كان عمر عبوساً قطوباً . . .

وبعد فمن حرّم المزاح وهو شعبة من شعب السهولة ، وفرع من فروع الطلاقة . وقد أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمحة ، ولم يأتنا بالانقباض والقسوة ، وأمرنا بإفشاء السلام ، والبشر عند الملاقاة ، وأمرنا بالتوادد والتصافح والتهادى »[2] .

وهكذا نرى الجاحظ يعالج موضوع المزح معالجة جادة ، ويذهب مذهباً وسطاً في تقدير قيمة الهزل والفكاهة ، فليس من الصواب — في رأى الجاحظ ولا في رأى غيره من العقلاء — أن يسرف الإنسان في المزاح ويفرط في الهزل ، لأن ذلك ينافي المروءة ، ويضعف الشخصية ، بل ويؤدى إلى إهمال الواجبات ، والتراخي في تحمل التبعات ، وفي ذلك انحراف عن الجادة وبعد عن القصد ، وميل عن الاعتدال ، الذى هو ملاك السلامة ، وسبيل الرشاد .

---

(١) النضح : الدفاع والذب بالحجة .

(٢) رسائل الجاحظ ج ٣ ص ٩٣ — ٩٧ (باختصار) .

ويتفق الجاحظ في رأيه هذا مع الأديب الأمريكي « هولمز » الذي يقول :

« أنا لا أمقت منكم ميلكم إلى الضحك ، ولا أضنّ عليكم بالكلمة تضحككم متى قدّرني الله على ذلك ، فأما أن تطلبوا إليّ ألا أقول إلا ما يضحك وإلى أنفسكم ألا تفعل شيئاً غير الضحك ، فذلك يخالف لسنة الطبيعة ، وجدير بمن هذا شأنه أن ينقلب قرداً لتوه وساعته . ولذا كان من البلية على الكاتب أو الشاعر أن يسترسل في باب المضحك ، فإنه يعود الناس بذلك ألا ينتظروا منه إلا ما يضحك ، وألا يعرفوه إلا مراحاً ، فهم يذكرون معه ما دام يضحكهم ، فإذا أراد أن يجد وشرع ينطق بالعلم والحكمة ضحكوا منه وهزئوا به »[1] .

إمتاع القارىء بالملح والفكاهات :

حرص الجاحظ في كثير من مؤلفاته على إيراد النوادر والطرائف التي يمتع بها قراءه ، ويدخل السرور على نفوسهم ، ويبعث النشاط في قوام ، والملاحظ أنه اهتم بذلك المنهج بخاصة في « البيان والتبيين » و « الحيوان » وهما المؤلفان الكبيران اللذان عالج في كل منهما مسائل أدبية وعلمية وتاريخية على قدر كبير من الأهمية وعلى مستوى رفيع من التحليل والتعمق والاستقصاء .

ويدافع الجاحظ عن هذه الطريقة في مواضع متعددة من كتابيه المشار

---

(١) مجلة الرسالة ، العدد ١٨٨ ، ص ٢٢٢ ، عام ١٩٣٧ من مقال للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف .

إليهما ، فتراه يعرض في بداية كتاب « الحيوان » مقالة العاتب عليه ، المنتقد لمنهجه ، الذي يخاصمه قال :

« ما بال أهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل وأهل البصر بمخارج الملل ، وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء – يكتبون كتب الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهي والفكاهات . . . ألأنهم لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يوازنون ما عليهم ولهم ، ولا يخافون تصفح العلماء ، ولا لائمة الأرباء .. ومشنأة الجلساء ؟! »[1] .

ثم يرد الجاحظ على مخاصمه بعد أن سرد مضمون اعتراضه يقول :

« وهذا كتاب موعظة وتعريف ، وتفقه وتنبيه ، وأراك قد عبته قبل أن تقف على حدوده ، وتتفكر في فصوله ، وتعتبر آخره بأوله ، ومصادره بموارده ، وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزح لم تعرف معناه ، ومن بطالة لم تطلع على غورها ، ولم تدر لم اجتلبت ، ولا لأي علة تكلفت ، وأي شيء أريغ[2] بها ، ولأي جد احتمل ذلك الهزل ، ولأي رياضة تجشمت تلك البطالة ، ولم تدر أن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد ، وأن البطالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة »[3] .

وفي البخلاء يردد الجاحظ كلاماً قريباً من هذا عن المزح والضحك يقول :

« . . . ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي له جعل الضحك ، صار المزح جداً والضحك وقاراً »[4] .

---

(١) الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج ١ ، ص ٢٥

(٢) أريغ : أريد وطلب (بصيغة المبني للمفعول) .

(٣) المرجع السابق ص ٣٧ (٤) البخلاء ص ٧

ويفيض الجاحظ فى الاحتجاج لمزج الهزل بالجد ، وجدوى ذلك فى إمتاع القارىء ، وتنشيطه ، وإخراجه من باب لباب ، فتراه يعقد فصلا فى « البيان والتبيين » يقول فى بدايته : « ذكر بقية كلام النوكى والموسوسين والجفاة والأغبياء وما ضارع ذلك وشاكله وأحببنا أن لا يكون مجموعاً فى مكان واحد إبقاء على نشاط القارىء والمستمع »(١) .

ويقول فى كتاب « الحيوان » : « وإنما أكتب لك من كل باب طرفا لأن إخراجك من باب لباب أبقى لنشاطك ، ولو كتبته بكماله لكان أكمل وأنبل ، ولكن أخاف التطويل ، وأنت جدير بأن تعرف بالجملة التفصيل »(٢) .

واستطرادات الجاحظ هذه لم تكن مقصورة على إيراد الفكاهات والمزاح بل ربما كانت بألوان من الشعر النادر ، والخبر الطريف ، والقصة المسلية وكأنه يطبق فكرة « هولز » تطبيقا عمليا ، حتى لا ينتظر القراء منه سوى الدعابة ، ولا يتوقعوا منه إلا ما يضحك .

ومن الشواهد على ذلك ما جاء فى البيان والتبيين(٣) وفى أثناء تناول الجاحظ لموضوع تمادح العرب بشدة العارضة ، وظهور الحجة ، والعلو على الخصم استطرد — وهو يتحدث عن تعظيم العرب شأن لقمان بن عاد الأكبر — فتحدث عن إنجاب البنات ، وكراهية العرب للمرأة التى لا تنجب البنين ، وحكى هذه القصة الطريفة ، قال :

« ولبغض البنات هجر أبو حمزة الضبى خيمة امرأته ، وكان يقيل

(١) ج ٤ ، ص ٥ (٢) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٥

(٣) ج ١ ، ص ١٨٦

ويبيت عند جيران له ، حين ولدت امرأته بنتاً ، فمرّ يوماً بخبائها ، وإذا هى ترقّصها وتقول :

ما لأبى حمـــزة لا يأتينا … يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألاّ نلد البنينا … تالله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا … ونحن كالأرض لزارعينا
* ننبت ما قد زرعوه فينا *

قال : فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبّل رأس امرأته وابنتها » .

ثم يعلق الجاحظ على هذه الحكاية وما سبقها من استطراد فيقول :

« وهذا الباب يقع فى كتاب الإنسان ، وفى فضل ما بين الذكر والأنثى تامًّا ، وليس هذا الباب مما يدخل فى باب البيان والتبيين ، ولكن قد يجرى السبب فيجرى معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلة كان ذلك أروح على قلبه ، وأزيد فى نشاطه إن شاء الله »[١] .

عدوى الضحك :

أشار الجاحظ فى كتاب « البخلاء » إلى أصل من أصول ...
وهذا الأصل يتمثل فى أن الضحك لا يحدث بصورة كاملة إلا فى جماعة ، أما الإنسان لا يتأتى له أن يضحك ضحكاً ممعاً حقاً وهو بمفرده . يقول ... موقفاً طريفاً له مع واحد من بخلائه :

---

(١) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٨٦ .

« صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلا ، فلما صرت قرب منزله ، وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي ، سألني أن أبيت عنده ، وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة وليس معك نار ، وعندي لبأ[١] لم ير الناس مثله ، وتمر ناهيك به جودة ، لا تصلح إلا له . فملت معه ، فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبأ وطبق تمر ، فلما مددت [يدي] قال : يا أبا عثمان إنه لبأ وغلظه[٢] ، وهو الليل وركوده ، ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت في السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل[٣] يسرع إليك . . فإن أكلت اللبأ ولم تبالغ ، كنت لا آكلا ولا تاركاً ، وحرشت طباعك[٤] ، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك ، وإن بالغت بتنا في ليلة سوء . . . وإنما قلت هذا الكلام ، لئلا تقول غداً : كان وكان ، والله قد وقعت بين نابي أسد ، لأني لو لم أجئك به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به ، وبدا له فيه[٥] ، وإن جئت به ولم أحذرك منه ، ولم أذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق عليّ ولم ينصح ، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً ، فإن شئت فأكلة وموتة ، وإن شئت فبعض الاحتمال ونوم على سلامة .

يقول الجاحظ : فما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعه فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن ، ولو كان معي من يفهم

---

(١) اللبأ : أول اللبن عند الولادة .
(٢) يريد ثقله على المعدة .
(٣) الغليل : شدة العطش .
(٤) أي هيجت شهوتك للطعام .
(٥) أي عرض فيه رأي آخر .

طمع ما تكلم به لأنى على الضحك ، أو لقضى على ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب »[1].

وهذا الذى تنبه إليه الجاحظ بشأن الضحك من مئات السنين قرره الباحثون المحدثون فى تحليلهم لظواهر الضحك ، إذ ذهبوا إلى أنه ظاهرة اجتماعية ، وذلك لأن الضحك بطبيعته فى حاجة إلى من يردد أصداءه ، وينشر إشعاعاته ، وهذا رأى « برجسون » ، وربما كان أكبر دليل على أن الضحك ظاهرة اجتماعية ، أنه كلما زاد عدد النظارة فى المسرح زادت بالتالى ضحكاتهم واشتد هتافهم وتصفيقهم[2] .

* * *

وهكذا يتضح لنا أن الجاحظ اهتماماً ملحوظاً بالفكاهة ، وإسهاماً جيداً فى بحث ظواهرها وأصولها ، وإدراكاً واعياً لقيمتها ودورها فى نفس الإنسان وجسمه ، وعدها عاملا مهماً من عوامل الترفيه والتخفيف من أثقال الحياة ، وأعباء الواجبات المنوطة بالإنسان .

والجاحظ لم يقتصر على هذا الجانب النظرى الذى اصطلحنا على تسميته « فلسفة الفكاهة » بل سلك مسلكاً عملياً فى مؤلفاته ، فأولى عناية خاصة بهذا الجانب ، وحشد قدراً كبيراً من الطرائف و « النكات » فى أثناء كتاباته الجادة ، بالإضافة إلى إمتاعه قراء العربية بطائفة من الكتابات

---

(١) البخلاء ص ١٣٣ — ١٣٤ .
(٢) سيكلوجية الفكاهة والضحك ص ٧٤ — ٧٥ .

الساخرة ، التى تعد من أروع ما يمثل الأدب الفكاهى عند العرب ، بقى لنا منها كتاب « البخلاء » ورسالة « التربيع والتدوير » .

وقد استبان لنا أيضاً أن علماء النفس فى العصر الحديث أكدوا صدق ما ارتآه الجاحظ فى ذهابه إلى أن الضحك غريزة وأنه ذو أثر فى الجسم والنفس »[1] مثل « مكدوجال » و « برجسون » وغيرهما .

(١) الفكاهة فى الأدب : للدكتور أحمد الحوفى ، ج ١ ، ص ١٠ .

الفصل الثانى

دلالات الفكاهة عند الجاحظ

تميز أدب الجاحظ - عامة - بالتعبير عن قضايا المجتمع ، وجاءت مؤلفاته تسجيلا أميناً لأحداث العصر الذى عاشه كاتبها بجوانبه المختلفة ، فمن أهم ما تتسم به كتاباته أنه « يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ويجعلك تلمسها وتذوقها - على قلة الكتاب الذين يعنون بهذه الناحية - فإذا قرأت « الكامل » أو « أمالى القالى » أو « عيون الأخبار » لم تحس فيه شيئاً من ذلك . ومن أجل ذلك كانت كتب الجاحظ أغزر مصدر لدارسى الحياة الاجتماعية فى عصره »[1] .

وإن نظرة فاحصة فى تراث الجاحظ جملتنا على يقين من أن هـذا الرجل كان ناقداً لكل مالم يسغه عقله الناضج ، وفكره المستنير ، فى شتى المجالات . فقد تعقب العلماء والرواة فى عصره وقبل عصره ، ونقد المفسرين ، والمحدثين ، وعلماء اللغة ، ونقد الأطباء والمترجمين ، ونقد الوعاظ والقصاص ، ونقد العامة وسخر من الخرافات التى تعشش فى رءوسهم ، وأبدى إشفاقه عليهم ورغبته فى تقويم عقولهم . ونقد الجاحظ كذلك العادات الاجتماعية والأنماط الأخلاقية الذميمة ، واستصرخ من الظلم الذى يعانى منه المخلصون ، والمهانة التى يتعرض لها ذوو العقول الراشدة والآراء السديدة .

---

(١) ضحى الإسلام : لأحمد أمين ، ج ١ ، ص ٣٨٨ .

ومما يدخل فى هذا الباب أيضا ما يحكيه الجاحظ عن روانه يقول :

« قال أبو الحسن المدائنى : قال سعيد النواء : قدمت المدينة فلقيت على ابن الحسين فقلت : يا ابن رسول الله ، متى يبعث أمير المؤمنين على بن أبى طالب. قال : إذا بعث الناس ، قال : ثم تذاكرنا الجمل فقال : ليته كان ممنوعاً قبل ذلك بعشرين سنة — أو كلمة غير هذه — قال : فأتيت حسن بن حسن ، فذكرت له ما قال ، فقال : لوددت والله أنه كان يقاتلهم إلى اليوم ! قال : فخرجت من فورى ذلك إلى على بن الحسين ، فأخبرته بما قال ، فقال : إنه لقليل الإبقاء على أبيه . قال : وبلغ الخبر المختار[١] فقال : أيضرب بين ابنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ لأقتلنَّه ! فتواريت ما شاء الله ، ثم لم أشعر إلا وأنا بين يديه ، فقال : الحمد لله الذى أمكننى منك ! فقلت : أنت استمكنت منى ؟ أما والله لولا رؤيا رأيتها ما قدرتَ على ! قال : وما رأيت ؟ فقلت : رأيت عثمان بن عفان فقلت : أنا عثمان بن عفان ؟ فقال : أنا حبارى ، تركت أصحابى حيارى ، لا يهود ولا نصارى ! فقال : يا أهل السكونة انظروا إلى ما أرى الله عدكم ! ثم خلى سبيلى »[٢] .

وهذه القصة المضحكة تُبيِّن تعصب المختار وطيشه لتوعده رجلا بالقتل لمجرد أنه كشف النقاب عن وجود رجل من أحفاد الإمام على ينتقد مسلك جده فى خوض حرب الجمل ، ومن ناحية أخرى تدل القصة على ذكاء سعيد النواء وحسن حيلته ، إذ أمكنه التخلص من انتقام المختار بأن اختلق له

---

(١) هو المختار بن أبى عبيد الثقفى أحد دعاة الشيعة وغلاتهم قاد معارك عديدة ضد بنى أمية وتزعم جماعة التوابين الذى نهضوا ليثأروا للحسين من قاتليه .

(٢) الحيوان ح ٥ ص ٤٥٠

تلك الرؤيا الملفقة ، وجعل فحواها انتقاص عثمان بن عفان — رضى الله عنه — وذلك شيء يرضى المختار ويوافق هواه وهوى أضرابه من الشيعة الغلاة .

— ٢ —

وتجنح فكاهات الجاحظ فى بعض الأحيان إلى جانب السياسة ، فترى فى ثناياها تعريضا ببعض الخلفاء أو الولاة ، وانتقادا لسياستهم ، أو سخرية منهم وكشفا لجهلهم وغفلتهم .

من هذه الفكاهات ما رواه الجاحظ فى « البيان والتبيين »[(١)] قال :

« ونظر عثمان بن عفان — رحمه الله — إلى عير مقبلة ، فقال لأبى ذر : ما كنت تحب أن تحمل هذه؟ قال أبو ذر : رجلا مثل عمر » .

وهذا الجواب من أبى ذر — رضى الله عنه — تعريض لاذع بسياسة الخليفة عثمان وتلميح إلى حاجة الخلافة إلى رجل حازم مثل عمر بن الخطاب ، ومشهور أن أبا ذر قد اختلف مع عثمان وانتقده كثيراً حتى اضطر عثمان إلى أن ينفيه إلى الربذة[(٢)] .

ومما يتصل بهذا الباب ما يرويه الجاحظ عن أبان بن عثمان قال : « قال عبد الملك — يعنى ابن مروان الخليفة الأموى — : لقد كنت أمشى فى الزرع فأتقى الجندب أن أقتله ، وإن الحجاج ليكتب إلىّ فى قتل فئام[(٣)] من الناس فما أحفل بذلك ! »[(٤)] .

(١) ج ٢ ص ١٧٧

(٢) انظر فى هذا الموضوع كتاب زعماء الإسلام لحسن إبراهيم حسن ص ١٧١ وما بعدها .

(٣) فئام : جماعات كثيرة . لا واحد له من لفظه .

وفى هذا الخبر ما فيه من مفارقة صارخة بين مسلك عبد الملك بن مروان الذى كان يتوقى أن تطأ قدمه حشرة صغيرة فى حين ترد عليه مراراً أخبار بطش الحاج بالعديد من خصوم الدولة فلا يكترث عبد الملك لذلك ، ولا يرى منه بأساً !

ومن الفكاهات ذات الطابع الساخر ، والأسلوب التهكمى الهادف تلك الطرفة التى يرويها الجاحظ بقوله :

« بينا معاوية بن مروان (أخو عبد الملك بن مروان) واقف بدمشق ينتظر عبد الملك على باب طحان ، وحمار له يدور بالرحى وفى عنقه جلجل[1] ، إذ قال للطحان : لم جعلت فى عنق هذا الحمار هذا الجلجل ؟ قال : ربما أدركتنى سآمة أو نعسة ، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه نام فصحت به . قال معاوية : أفرأيت إن قام ثم قال برأسه هكذا وهكذا ـ وجعل يحرك رأسه يمنة ويسرة ـ ما يدريك أنت أنه قائم ؟ فقال الطحان : ومن لى بحمار يعقل مثل عقل الأمير ؟! »[2] .

— ٣ —

ولعل الجانب الأكبر من فكاهات الجاحظ يصطبغ بصبغة اجتماعية ، إذ يعالج ويلمس مشكلات فى صميم الحياة ، بطريق الحكاية والإخبار حيناً ، وبطريق السخرية والتهكم حيناً آخر ، وتكتسب فكاهاته التى من هذا النوع أهمية كبرى : إذ تعد تسجيلا صادقاً للواقع الاجتماعى فى عصره ، ومعايشة

---

(١) الجلجل : الجرس الصغير .

(٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٦١

لحياة فئات من الناس ، وما يعانونه من مشكلات ، وما تضطرب به معاملاتهم وعلاقاتهم من خلل وخداع وخبث ورياء .

ولنطوّف مع هذه الطرائف والنوادر التي يرويها الجاحظ والتي لها دلالة اجتماعية ، ومغزى أخلاقي .

فمن الطرائف التي تدل على السخرية من عبدة المال ، وكشف حيلهم وخدعهم التي يستترون وراءها هذا الشعر الذي يرويه الجاحظ عن العلاء بن الجارود يقول فيه :

أظهروا للناس نسكا ... وعلى المنقوش داروا
وله صلوا وصاموا ... وله حجوا وزاروا
وله قاموا وقالوا ... وله حلّوا وساروا
لو غدا فوق الثريا ... ولهم ريش لطاروا

وقول الآخر في أكلة مال اليتيم :

شمّر ثيابك واستعد لقابل ... واحكك جبينك للقضاء بثوم
وامش الدبيب إذا مشيت لحاجة ... حتى تصيب وديعة ليتيم (١)

وأحياناً تأتي الطرائف التي يرويها الجاحظ مصورة لسلوك بعض الناس في معاملاتهم المالية ، وما يتصف به بعضهم من خراب الذمة ، وعدم الالتزام بأداء ما عليه من ديون ، وطمع بعضهم الآخر في انتهاب أموال الآخرين بشتى الحيل والشملات . ومن الطرائف الدالة على ذلك هاتان القصتان :

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٤٦٧ .

... « أتى رجل عباديا صيرفيا يستسلف منه مائتي درهم ، فقال : وما تصنع بها ! قال : أشترى بها حماراً فلعلى أربح فيه عشرين درهما . قال : إذا أنا وهبتك العشرين ، فما حاجتك إلى المائتين ؟ قال : ما أريد إلا المائتين . فقال : أنت لا تريد أن تردها علىّ »[١] .

« وأتى قوم عباديا فقالوا : نحب أن تسلف فلاناً ألف درهم وتؤخره سنة فقال : هاتان حاجتان ، وسأقضى لكم إحداهما ، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت ، أما الدراهم فلا تسهل علىّ ، ولكنى أؤخره سنتين »[٢] .

— ٤ —

ولفكاهات الجاحظ أيضاً قيمة تاريخية مهمة ، إذ نستشف منها كثيراً من الحقائق التاريخية ، ونتعرف من خلالها على كثير من الأساليب الحضارية التى عرفها الناس فى ذلك الزمان ، ويتحقق ذلك الجانب بخاصة فى كتاب « البخلاء » حيث يطلعنا الجاحظ فيه على قدر كبير من عوائد الناس وأعرافهم ، ويقصّ علينا طائفة من مواضعاتهم وتعارفوا عليه وتناقلوه كحديثه عن بخل المروزيين ، وحرص أهل الأبلة[٣] ، ويحكى طرائف مشوقة فى هذا الصدد كأن يذكر عن أهل الأبلة فى تصوير بخلهم هذا الخبر يقول :

« ويكون الزائر من أهل البصرة عند الأبُلّىّ مقيماً مطمئناً ، فإذا جاء المد قالوا : ما رأينا مدًّا ارتفع ارتفاعه . وما أطيب السير فى المدّ ! والسير فى المد إلى البصرة أطيب من السير فى الجزر إلى الأبلة ! فلا يزالون به حتى يرى أن من الرأى أن يغتنم ذلك المدّ بعينه »[٤] .

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٥ (٢) المرجع السابق ص ٦

(٣) بلد بالقرب من البصرة مما يلى شط العرب .

(٤) البخلاء ص ١٢٥

ومما نستفيده من فكاهات الجاحظ التعرف على نوعية الطبقات الاجتماعية في عصره كالتجار وما جمعه بعضهم من ثروات وكالصيارفة ، والأعراب والمكدّين ، فقد وصف لنا الجاحظ صوراً من حياة هؤلاء وألمح إلى ما كانت تضطرب به علاقاتهم من صراع ، وما كان يحدث بينهم من احتكاك ، وما يحمله بعضهم للبعض الآخر من حقد وبغضاء ، وما يتنابزون به من نعوت وأوصاف ، ومن أمثلة ذلك ما حكاه في البخلاء — وهو أحفل كتبه بهذه الاشارات — من التنازع بين الملاك والمستأجرين كقصة الكندي وساكني داره ، وأيضاً تصويره لحيل المكدّين في قصة خالويه المكدى ، ووصفه لحيل المستأكلين أو الطفيليين فيما حكاه عن على الأسوارى وقاسم التمار وغيرهما .

— ٥ —

وأخيراً تدل فكاهات الجاحظ — من الناحية الأدبية — على رقى الكتابة الفنية في الأدب العربى ، وبلوغها طور النضج والاكتمال ، وطواعيتها للتعبير عن الأغراض الدقيقة ، وقدرتها على التصوير والوصف ، وأن النثر الأدبى قد غدا في عصر الجاحظ قادراً على تحمل المضامين المتنوعة ، وإظهارها في قوالب تعبيرية جديدة كالتصوير الساخر ، والأقصوصة المرحة .

هذا إلى أن لفكاهات الجاحظ تأثيرها الذى لا سبيل إلى إنكاره على أدبنا العربى في عصوره المتعاقبة ، كما سنشير إلى ذلك في الفصل الأخير من هذه الدراسة .

الفصل الثالث

موضوعات الفكاهة عند الجاحظ

انتهينا فى الفصل السابق إلى أن لفكاهات الجاحظ مضامين هادفة ، قد تلمس قضية سياسية أو اجتماعية أو مذهبية مما يؤكد أنه كان يوجه سهام نقده إلى المظاهر السلبية التى لا تعجبه .

وهناك أنماط من الناس اختارهم الجاحظ موضوعا لفكاهاته وهم نماذج لأشخاص أو طوائف بأعيانها رأى فيهم الجاحظ بعين الناقد الساخر أنماطا مترديه - سلوكيا أو أخلاقياً أو فكريا - فجسّم فيهم بأسلوبه التهكمى تلك النقائص المعيبة ، وكشف بتصويره الرائع مخازيهم وخدعهم . وهنا تكمن القيمة الفنية للفكاهة عند الجاحظ بحسبانها أداة للإصلاح . وحافزا على تخليص المجتمع من عيوبه ونقائصه عن طريق تكثيف الشعور بالازدراء من الموضوع الذى يضحك منه .

والحقيقة أن موضوعات الفكاهة عند الجاحظ كثيرة ومتنوعة ، وإن كنا نستطيع أن نتبين من مجموعها أنه قد أفاض فى توجيه سخرياته إلى النوعيات التالية :

١ — القصاص والوعاظ .

٢ — الأعراب .

٣ — الحمق والبُله .

٤ — المعلمون .

٥ — البخلاء .

وسنبسط القول فى كل نوعية منها .

أولا : القصاص والوعاظ :

كان الجاحظ — كما هو مشهور — علماً من أعلام المعتزلة ، وصاحب فرقة من فرقهم ، والمعتزلة أرباب فصاحة ولسن ، ودهاة بلاغة وجدل ، وكانوا يأخذون أتباعهم بتعلم أساليب الجدل ، ويدلونهم على وسائل البراعة فى القول ، والاستحواذ على إعجاب السامعين .

وفضلا عن ذلك فالجاحظ صاحب عقلية ناضجة ، وفكر مستنير ، فلم تكن تعجبه تخبطات بعض الوعاظ والخطباء ، ولا قصصهم التى ينسجون أكثرها من الخيال ، ويتناقلون بعضها الآخر على علاتها دون روية أو انتقاد . كما كانت تستثير سخرية الجاحظ جهالات بعضهم ، وقلة فهمهم لحقائق الدين ، ويؤكد الجاحظ أن هذه النوعية من الخطباء والوعاظ إذا اعتلوا المنابر بدوا كالمجانين . يقول :

« وهؤلاء الجفاة والأعراب المحرمون وأصحاب المجازفة ، ومن قل فقهه فى الدين إذا خطبوا على المنابر فكأنهم فى طباع أولئك المجانين »(١) .

ثم إن الجاحظ حرص وهو يتحدث عن الخطابة — فى البيان والتبيين — بحسبانها ميزة العرب ، ومفخرتهم على سائر الأمم — حرص أن يذكر عيوب الخطباء ، وما يعترى بعضهم من حصر ، وما يتعثرون فيه من أخطاء ..

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٢٢٦ . والمحرمون من الأعراب هم الذين لم يهذبهم التحضر . من قولهم ناقة محرمة بمعنى لم ترض ولم تذلل .

ومدار الفكاهات المتعلقة بالخطباء والوعاظ والقصاص على عدة أخطاء كان يتورط فيها بعضهم، أو تعرض له فى أثناء مواجهته للناس ، ولا ريب أن مهمة الواعظ أو من يتصدى لجمهور الناس بصفة عامة ـ ليست باليسيرة ؛ لأنه يعرض عقله عليهم ، وتكون أقواله وإشاراته ، بل كل حرف ينطقه أو حركة يأتيها ـ محسوبة عليه ، وبالتالى فالزلة الهينة منه تعظم فى أعين الناس .

ويمكننا أن نلخص الأخطاء التى اهتم الجاحظ بتكشيفها فى : الحصر ، وعدم مراعاة مقتضى المقام ، والجهل .

أما الحصر فقد ساق الجاحظ طرائف ممتعة تتعلق به ، وذلك فى معرض تنويهه بأن للخطابة رهبة ، ولها صعداء على ما يحكيه عن الكميت بن زيد .

وهناك طرائف ممتعة ساقها الجاحظ فى باب الحصر لأناس اضطروا إلى الخطابة أو قدموا ليخطبوا فأرتج عليهم منها :

— « صعد عدى بن أرطأة على المنبر ، فلما رأى جماعة الناس حصر فقال : « الحمد لله الذى يطعم هؤلاء ويسقيهم ! »[1] .

« وصعد روح بن حاتم المنبر ، فلما رآهم قد شفنوا[2] أبصارهم ، وفتحوا أسماعهم نحوه قال : نكّسوا رءوسكم ، وغضّوا أبصاركم ، فإن المنبر مركب صعب ، وإذا يسّر الله فتح قفل تيسّر »[3] .

« وصعد آخر فلما استوى قائماً وقابل بوجهه وجوه الناس وقعت عينه على صلعة رجل فقال : اللهم العن هذه الصلعة ! »[4] .

---

(١) البيان والتبيين : ج ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) الشفن : أن يرفع طرفه ناظرا إلى الشىء كالمتعجب .

(٣) المرجع السابق والصفحة   (٤) المرجع ص ٢٥١ .

« وقيل لوازع اليشكري : قم فاصعد المنبر وتكلم ، فلما رأى جمع الناس قال : لولا أن امرأتي حلفت على إتيان الجمعة اليوم ما جمعت ، وأنا أشهدكم أنها مني طالق ثلاثا ! »(١)

وهناك حماقات يرتكبها بعض الوعاظ عن جهل منهم بأحكام الدين ، أو عدم استيعاب لمدلول ما يقولون ، وهؤلاء أفدح خطباً وأشد بلاء من سابقيهم ؛ لأن الحصر حالة عارضة ، وربما يكون مرجعها أن الذى يصاب بها لم يمرن نفسه على الخطابة ومواجهة الناس ، وهو لا ذنب له فى ذلك ، أما الجهل والتخبط أو عدم مراعاة مقتضى الحال والمقام فإن اللائمة فى ذلك تعود على الواعظ أو الخطيب لتقصيره فى معرفة ما ينبغى عليه معرفته والإلمام به .

وهذه العيوب التى تعترى الخطباء والقصاص والتى سجلها الجاحظ وسخر منها تكاد تتطابق مع ما يحدث فى عصرنا الراهن وبصورة خاصة فى حواضر مصر وقراها ممن يتصدون لمهمة الخطابة وإرشاد الناس ، وهم أنفسهم فى حاجة ماسة إلى من يرشدهم ، ويقوّم أخطاءهم ويصحح ما فسد من عقولهم .

ومعظم الشخصيات التى صورها لنا الجاحظ تراجم من الأدعياء الذين يزعمون لأنفسهم ما ليس لهم ، ويتظاهرون أمام عامة النـاس بالفقه والورع ، والعلم والإحاطة ، فإذا اعترضهم معترض ، أو لفتهم إلى الصواب نفر من أهل العلم ، أخذتهم العزة بالإثم ، وأصروا على ما زعموه من باطل وربما تخلص بعضهم بحجة طريفة ، أو اعتذر بما هو أقبح من ذنبه .

وهذه جملة من طرائفهم وفكاهاتهم التى تصور حمقهم ، وتبين عن جهلهم وإصرار نفر منهم على ما يتورطون فيه من أخطاء :

— « خطب وكيع بن أبى سود بخراسان فقال : إن الله خالق السموات

---

(١) المرجع السابق والصفحة .

والأرض فى ستة أشهر . فقيل له : إنها ستة أيام . فقال لمن لقنه إلى الصواب : وأبيك لقد قلتها وإنى لأستقلها ! »[١] .

« وخطب والى اليمامة فقال : إن الله لا يقار عباده على المعاصى ، وقد أهلك أمة عظيمة فى ناقة ما كانت تساوى مائتى درهم » فسمى مقوّم ناقة الله[٢] .

« وخطب عدى بن وتاد الإيادى فقال : أقول لكم كما قال العبد الصالح : (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) قالوا له : ليس هذا من قول عبد صالح ، إنما هو من قول فرعون قال : ومن قاله فقد أحسن ! »[٣] .

« وقال ثمامة : سمعت قاصاً بعبادان يقول فى دعائه : اللهم ارزقنا الشهادة وجميع المسلمين ! »[٤] .

ومن نوادر أبى أحمد التمار أنه كان يقول فى قصصه : « ولقد عظّم رسول الله صلى الله عليه وسلم حق الجار ، وقال فيه قولا أستحى والله من ذكره ! ! »[٥] .

— « وكان الوليد بن القعقاع عاملا على بعض الشام ، وكان يستسق فى كل خطبة وإن كان فى أيام الشعرى[٦] ، فقام إليه شيخ من أهل حمص فقال : أصلح الله الأمير . إذاً تفسد القطانى[٧] ! »[٨] .

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٣٦ (٢) المرجع والصفحة

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٤ (٤) المرجع السابق ص ٣١٧

(٥) الحيوان ج ٣ ص ٢٩٧

(٦) الشعرى : كوكب نير يقال له المرزم يطلع بعد الجوزاء وطلوعه فى شدة الحر (اللسان) .

(٧) القطانى — كما فسرها الجاحظ — : الحبوب واحدها قطنية .

(٨) البيان والتبيين ج ٤ ص ١٩ .

ويوجه الجاحظ كثيراً من سخرياته إلى طائفة ممن احترفوا القصص الديني ويتعقب أخطاءهم ويروى طرائفهم ، منهم : « أبو كعب القاص » ، و « موسى كوش » وغيرهما ، وتصور الطرائف المتعلقة بهؤلاء القصاص جانباً من الخرافات والقصة الخيالية التى كانت تروقهم وتروج عند أشباههم من العامة والدهماء . يقول الجاحظ مصوراً واحداً منهم : « وكان عندنا قاص يقال له موسى كوش، فأخذ يوما فى ذكر قصر الدنيا وطول أيام الآخرة ، وتصغير شأن الدنيا وتعظيم شأن الآخرة فقال :

إن الذى عاش خمسين سنة لم يعش شيئاً وعليه فضل[١] سنتين ! ! قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : خمساً وعشرين سنة ليل هو لا يعقل قليلا ولا كثيراً ، وخمس سنين قائلة ، وعشرين سنة إما أن يكون صبياً ، وإما أن يكون معه سكر الشباب ، فهو لا يعقل ، ولا بد من صبحة بالغداة[٢] ، ونعسة بين المغرب والعشاء ، كالغشى الذى يصيب الإنسان مراراً فى دهره ، وغير ذلك من الآفات ، فإذا حصلنا ذلك . فقد صح أن الذى عاش خمسين سنة لم يعش شيئاً وعليه فضل سنتين[٣] .

فانظر إلى أى مدى بلغ سخف هذا القاص ، إذ زين له عقله السقيم ومنطقه المعوج ، أن جعل حياة الشخص الذى عاش خمسين سنة ضائعة هباء ، وذاهبة سدى ، بين نوم وقيلولة وصبا وشباب . . ولو صح قياسه ، لما قامت للجنس

---

(١) الفضل : الزيادة ، ومن معانيها أيضاً : البقية ، وهو أنسب هنا . بمعنى أنه ــ حسب زعم ذلك القاص ــ يكون الذى عاش خمسين سنة لم يعش شيئاً ، وهو بعد مدين بعامين ! !

(٢) الصبحة ــ بضم الصاد ــ : نومة الغداة ــ والغداة : أول النهار .

(٣) البيان والتبيين ج ٤ ص ٢٦ .

البشرى قائمة ، ولا كانت حضارات ، ولا قامت دول ، بل ما كان للتكليف ولا للعبادة معنى . ولكنه الجهل والاسترسال مع أوهام العقول المريضة ، وخرافات الأفهام السقيمة .

وهذا قاص آخر يذكره الجاحظ بقوله :

« وكان عندنا قاص أعمى ليس يحفظ من الدنيا إلا حديث جرجيس[1] ، فلما بكى واحد من النظارة قال القاص : أنتم من أى شىء تبكون ؟ إنما البلاء علينا معاشر العلماء ! »[2] .

ولعله لا يخفى على القارىء الحصيف مغزى ذلك التلميح المتمثل فى مقالة القاص : « أنتم من أى شىء تبكون .. » . إذ توحى عبارته بأنه يود أن يوهم السامعين بأن لديه من أمثال هذه القصص الشىء الكثير ، وأنه هو ونظراؤه من « العلماء » يتحملون عبء هذه القصص، التى تقتلهم بكاء وإشفاقاً ، وخشية وخشوعا . وقلوبهم — فى حقيقة الأمر — أبعد عن الرحمة ، وأنأى عن أن تعرف الإشفاق والخشية .

وهناك شخصية أخرى حكى الجاحظ جانباً من نوادرها وطرائفها وهى شخصية أبى كعب القاص ، وقد صور الجاحظ فى كتابه الحيوان نفاق هذا الرجل وظهوره للناس بغير حقيقته ، وادعاءه العلم والفقه والورع ، وهو فى حقيقة أمره صورة مجسمة للجهل والغباء والبعد عن حوزة الدين .

يقول الجاحظ بعد أن حكى عن أبى كعب هذا حكاية مسفة تأبى أذواقنا أن نسطرها فى هذا الكتاب ، وستكون لنا إشارة إليها وإلى أمثالها فى موضعها إن شاء الله — يقول :

---

(١) قال فى القاموس ، جرجيس : نبى عليه السلام ونحوه فى لسان العرب .
(٢) البيان والتبيين ج ٤ ص ١٥ .

« وأبو كعب هذا هو الذى يقص فى مسجد عتاب كل أربعاً (يعنى أربعاء) فاحتبس عليهم فى بعض الأيام وطال انتظارهم له . فبينما هم كذلك إذ جاء رسوله فقال : يقول لكم أبو كعب : انصرفوا فإنى قد أصبحت اليوم مخموراً ! »(١) .

وكان أبو كعب يقول فى قصصه : كان اسم الذئب الذى أكل يوسف كذا وكذا ، فقالوا له : إن يوسف لم يأكله الذئب ، قال : فهو اسم الذئب الذى لم يأكل يوسف ! »(٢) .

ومن طرائف القصاص وحماقاتهم ما رواه ابن الجوزى عن الجاحظ قال :

« قال الجاحظ : سمعت قاصا بالكوفة يقول : والله لو أن يهوديا مات وهو يحب عليًا ثم دخل النار ما ضره حرها »(٣) .

وقال بعضهم : يا معشر الناس إن الشيطان إذا سُمِّى على الطعام والشراب لم يقربه ، فكلوا خبز الأرز المالح ولا تسموا ، فيأكل معكم ثم اشربوا الماء وسموا حتى تقتلوه عطشا ! ! »(٤) .

ثانيا : طرائف الأعراب :

وهى من أمتع ما سطره الحافظ ، وأوضحه دلالة على براعته فى التصوير ومقدرته على السرد القصصى الأخاذ ، وقد كان الجاحظ ولوعا بطرائف الأعراب محبا لأحاديثهم ، مغرما برواية غرائبهم وفكاهاتهم ، يقول فى ذلك :

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٢٥ .
(٢) أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى ط دار الآفاق بيروت ص ١٣٣
(٣) المرجع السابق ص ١٣٣ . (٤) المرجع والصفحة .

« رأنا أستظرف أمرين استظرافا شديدا ، أحدهما : استماع حديث الأعراب ، والأمر الآخر احتجاج متنازعين فى الكلام وهما لا يحسنان منه شيئًا ، فإنهما يثيران من غريب الطيب ، ما يضحك كل ثكلان وإن تشدد ، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب »[1] .

والأعراب الذين سرد الجاحظ نوادرهم وطرائفهم أهل بداوة وجفاء ، ليس لهم تمرس بأساليب الحضارة ، ولا معرفة بتقاليد المدنية ، وهم قوم جلّ حياتهم بالبادية ، لم يطل اختلاطهم بأهل الحضر ، وغالبا ما تحدث المواقف المضحكة ، والمفارقات الفكهة عندما تتصادم تقاليد البادية ومنطقها بتقاليد الحاضرة وعوائدها . ولا تزال فى بلادنا إلى الآن كثير من الطرائف و « النكات » التى تدور حول الرجل من أهل الريف أو من أبناء « الصعيد » حينما يفد إلى « مصر » لأول مرة . . .

والمضحك فى نوادر الأعراب يدور أحياناً حول ما تنطوى عليه تصرفات بعضهم غفلة وسذاجة ، وأحياناً لما يتصف به بعضهم من حرص وجشع ، وذلك لما تنطبع به حياتهم من جدب وحرمان ، تتأثر به طباعهم ، ويبدو جليا فى سلوكهم كما تدل بعض طرائفهم على مبلغ ما لديهم من تمسك بالصراحة التى تكون فى بعض الأحيان صراحة مخجلة ، ولكن سذاجتهم ، وخشونة عيشهم ، تجعل من مثل هذه الأشياء أموراً عادية ، لا يكترثون لها ، ولا يحفلون بها .

ومن طرائفهم التى تدل على ما ألمحنا إليه ما يأتى :

— « روى أن أعرابيًا اشتد عليه البرد ، فأصاب ناراً ، فدنا منها ليصطلى بها وهو يقول : اللهم لا تحرمنيها فى الدنيا ولا فى الآخرة ! »[2] .

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٦ .   (٢) الحيوان ج ٤ ص ٤٨٥ .

« وقيل لأعرابى : ما اسم الميت عندكم ؟ قال : السخين . قال : فإذا برد ؟ قال : لا ندعه يبرد »[١] .

« مات لابن مقرّن غلام ، فحفر لهم أعرابى قبره بدرهمين ، وذلك فى بعض الطواعين ، فلما أعطوه الدرهمين قال : دعوهما حتى يجتمع لى عندكم ثمن ثوب »[٢] .

« وقال أعرابى : اللهم ميتة كميتة أبى خارجة ! قالوا : وما ميتة أبى خارجة ؟ قال : أكل بذجا ، وشرب مشعلا[٣] ، ونام فى الشمس ، فأتته المنية شبعان ريان دفآن »[٤] .

« ونظر أعرابى إلى قوم يلتمسون هلال رمضان فقال : أما والله لئن أثرتموه لتمسكنّ منه بذنابى[٥] عيش أغبر[٦] ! » .

« وخطب رجل امرأة أعرابية فقالت له : سل عنى بنى فلان ، وبنى فلان ، وبنى فلان ، فعدت قبائل ، فقال لها : وما علمهم بك ؟ قالت : فى كلهم قد نكحت »[٧] .

---

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٩ .
(٢) البيان والتبيين ج ٤ ص ١١ .
(٣) البذج : من أولاد الضأن خاصة ، مشعلا : زق ينتبذ فيه .
(٤) الحيوان ج ٥ ص ٥٠٢ .
(٥) الذنابى : الذنب « بفتح النون » والمراد أنهم سيتسببون فى الصيام فيجرون على أنفسهم المتاعب .
(٦) البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٣ .
(٧) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧٨ .

وأخيراً هـذه طرفة تدل على شيء من طباع الأعراب وحبهم للمال ، وتكالبهم عليه بأى وسيلة كان ، ومن أى سبيل حصّل ، حكاه الجاحظ فى « البيان والتبيين » فى أثناء حديثه عن « العصا » يقول :

« ومن جمل القول فى العصا وما يجوز فيها من المنافع والمرافق تفسير شعر « غنيّة » الأعرابية فى شأن ابنها .

وذلك أنه كان لها ابن شديد العرامة ، كثير التفلت[1] إلى الناس مع ضعف أسر ، ودقة عظم ، فواثب مرة فتى من الأعراب فقطع أذنه فأخذت الدية ، فزادت دية أذنه فى المال وحسن الحال ، ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته ، فأخذت دية شفته ، فلما رأت ما قد صار عندها من الإبل والغنم والمتاع والكسب بجوارح ابنها حسن رأيها فيه ، فذكرته فى أرجوزة لها تقول فيها :

أحلف بالمروة يوماً والصفا أنك خير من تفاريق العصا[2]

ثم يعلق الجاحظ على هذه النادرة بقوله :

« ولا نعرف شيئاً يشبه معنى شعر « غنية » بعينه لا يغادر منه شيئاً . ولكن زعم بعض أصحابنا أن أعرابيين ظريفين من شياطين الأعراب حطمتهما السنة[3] ، فانحدرا إلى العراق ، واسم أحدهما « حيدان » ، فبينا هما يتماشيان فى السوق إذا فارس قد أوطأ دابته رجل حيدان فقطع إصبعا من أصابعه ، فتعلقا به حتى أخذا منه أرش[5] الإصبع ، وكانا جائعين مقرورين ،

---

(١) التفلت : المنازعة .

(٢) تفاريق العصا : ما ينتج عنها عندما تتكسر وهو مثل معناه أن لأجزائها وتفاريقها منافع كثيرة وأنها لا يذهب منها شيء باطلا .

(٣) السنة : الجدب . (٤) الأرش : الدية .

فحين صار المال فى أيديهما قصدا لبعض الكرابج(١)، فابتاعا من الطعام ما اشتهيا ، فلما أكل صاحب حيدان وشبع أنشأ يقول :

فلا غرث(٢) ما كان فى الناس كربج
وما بقيت فى رجـــــل حيدان إصبع

ويعلق الجاحظ على هاتين القصتين بقوله :

« وهذا الشعر وشعر « غنية » من الظرف الناصع الذى سمع به ، وظرف الأعراب لا يقوم له شىء »(٣) .

ثالثا : الحمقى والبله :

وقد أدخلناهم فى نوعية واحدة ؛ لأن أدواءهم متشابهة ، ومردها جميعاً إلى ضعف العقل ، وقلة الفهم ، واستحكام الغفلة والجهل .

وبعض هؤلاء تكون عيوبهم فى أصل الخلقة ، وليسوا عنها بمسئولين إلا أن تصرفاتهم فى بعض الأحوال تثير ضحك الأسوياء وسخريتهم .

ويعلل « برجسون » هذه الظاهرة بأن الضحك وسيلة فعالة لتصحيح أو تعديل تلك الآليات الضارة التى تنطوى عليها حياتنا الاجتماعية المادية بإظهارنا على ما فيها من سخف وعبث وتفاهة(٤) .

ولما كان الأحمق أو الأبله يتصرف دون مراعاة لقواعد العقل ، ولا مسايرة

---

(١) جمع كربج ـ فارسى معرب ـ : حانوت .
(٢) الغرث : الجوع .   (٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٠ .
(٤) سيكلوجية الفكاهة والضحك ص ٨٣ .

التقاليد التى ارتضتها الجماعة الإنسانية ، وكأنه فى مسلكه الشاذ يتحرك كما تتحرك الآلة « فإن الجماعة تتخذ من الضحك سلاحاً تسمى به إلى المحافظة على المرتبة التى وصلت إليها الإنسانية فوق الجماد والحيوان ، وما تريد الجماعة أن تقضى عليه لدى أفرادها إنما هو جمود البدن ، وتصلب العقل ، وتحجر الخلق ، لأنها تريد لهم أعظم قدر من المرونة ، وأعلى درجة ممكنة من الروح الاجتماعية وهذا الجمود هو فى حد ذاته مدعاة للسخرية ، ومن هنا فإن الضحك يجىء ليكون بمثابة « العقوبة الاجتماعية » التى يفرضها المجتمع على ضحايا الجمود والآلية والرتابة »[1] .

وهذه طائفة من نوادر الحمقى والبله والمتباهين كما رواها الجاحظ فى كتبه :

« أرسل ابن لعجل بن لجيم فرساً له فى حلبة فجاء سابقاً ، فقال لأبيه : يا أبه بأى شىء أسميه ؟ فقال : افقأ إحدى عينيه وسمه الأعور[2] ! » .

قال الجاحظ : « حدثنى محمد بن عباد بن كاسب قال : قال لى الفضل بن مروان — شيخ من طياب الكوفيين وأغبيائهم — : إن ولد لك مائة ذكر فسمهم كلهم محمداً ، وكنهم بمحمد ، فإنك سترى فيهم البركة ، أو تدرى لأى شىء كثر مالى ؟ قلت : لا والله ما أدرى . قال : إنما كثر مالى لأنى سميت نفسى فيما بينى وبين الله محمداً ، وإذا كان اسمى عند الله محمداً فما أبالى ما قال الناس[3] ! ! » .

« أعطى الحلولى ابنه درهماً وقال : زنه ، فطرح وزن درهمين ، وهو يحسبه

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤ . (٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٣ .
(٣) الحيوان ج ٣ ص ٢٧

وزن درهم ، فلما رأى الدرهم قد شال وضع معه وزن درهم ، فلما رفعه وجده شائلا فألقى معه حبتين ، فقال أبوه : كم فيه ؟ قال : ليس بشيء وهو ينقص حبتين ! ! »[١] .

— « وقع بين جار لنا وجار له يكنى أبا عيسى كلام فقال : اللهم خذ منى لأبى عيسى . قالوا : أتدعو الله على نفسك ؟ قال : فخذ لأبى عيسى منى !! »[٢]

— « لقى رجل رجلا ومعه كلبان ، فقال له : هب لى أحدهما . قال : أيهما تريد ؟ قال : الأسود . قال : الأسود أحب إلىّ من الأبيض . قال : فهب لى الأبيض . قال : الأبيض أحب إلى من كليهما ! ! »[٣] .

وسئل أبو سعيد الرفاعى — أحد الحمقى — عن الدنيا والدائنسة[٤] فقال : « أما الدنيا فهذه التى أنتم فيها . وأما الدائنسة فهى دار أخرى بائنة من هذه الدار . لم يسمع أهلها بهذه الدار ولا بشىء من أمرها ، وكذلك نحن لم نسمع بشىء من أمرها إلا أنه قد صح عندنا أن بيوتهم من قثاء ، وستورهم من قثاء ، وأنعامهم من قثاء ، وخيامهم من قثاء ، وهم فى أنفسهم من قثاء ، وقثاؤهم أيضاً من قثاء . قالوا له يا أبا سعيد : زعمت أن أهل تلك الدار لم يسمعوا بهذه الدار ولا بشىء من أمرها وكذلك نحن لهم ، وأراك تخبرنا عنهم بأخبار كثيرة . قال : فمن ثَمَّ أعجب زيادة ! ! »[٥] .

---

(١) البيان والتبيين ج ٤ ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤١ .

(٤) كلمة الدائنسة لا أصل لها . وإنما تندر سائله بهذه اللفظة ليستخرج منه ما يضحك .

(٥) المرجع السابق ص ٢٤٤ .

ومما يذكر للجاحظ فى هذا المقام أنه حمل على بعض المتبالهين ، ممن يزهدون فى الدنيا ، وينصرفون عنها ، مكتفين بلزوم المساجد ، والتفرغ للعبادة ، فقد عقد الجاحظ بابا فى « البيان والتبيين »[1] جعل عنوانه : (باب من البله الذى يعترى من قبل العبادة وترك التعرض للتجارب) ، سرد فيه طائفة من نوادر هذا الصنف من الناس ، منها : أن أحدهم لم يكن يفرق بين الدانق والقيراط ، ومنها ما حكاه الجاحظ بقوله : « وكان عامر بن عبد الله بن الزبير فى المسجد ، وكان قد أخذ عطاءه ، فقام إلى منزله ونسيه ، فلما صار فى منزله وذكره بعث رسولا ليأتيه به . فقيل له : وأين تجد ذلك المال ؟ فقال : سبحان الله ! أو يأخذ أحد ما ليس له ؟

وعامر هذا هو الذى سرقت نعله فلم يتخذ نعلا حتى مات وقال : أكره أن أتخذ نعلا فلعل رجلا يسرقها فيأثم .

ويعلق الجاحظ على هذه الروايات فيبين فضل أرباب التجربة ، وأهل الفقه والمعرفة على أولئك الذين انقطعوا للعبادة ، وأهملوا جانب الدنيا ، ويعلل لذلك تعليلا مقبولا فيقول :

« وقالوا : إن الخلفاء والأئمة أفضل من الرعية ، وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم ولهم ؛ لأنهم أفقه فى الدين ، وأقوم بالحقوق ، وأرد على المسلمين ، وعلمهم بهذا أفضل من عبادة العباد ؛ لأن نفع ذلك لا يعدو قمم رءوسهم ، ونفع هؤلاء يخص ويعم » .

ثم يؤكد الجاحظ أن العبادة أسمى من أن تكون غايتها جعل العبّاد بلها ، أو تحويلهم معتوهين . يقول :

---

(١) ج ٢ ص ٣٤٩ وما بعدها .

« والعبادة لا تدله ولا تورث البله إلا لمن آثر الوحدة وترك معاملة الناس، ومجالسة أهل المعرفة . فمن هنالك صاروا بلها ، حتى صار لا يجيء من أعبدهم حاكم ولا إمام »[1] .

وفى موضع آخر ينقل عن الحسن البصرى قوله : « يكون الرجل عابداً ولا يكون عاقلا ، ويكون عابداً عاقلا ولا يكون عالما »[2] .

وينقل عن أيوب السختيانى قوله :

« فى أصحابى من أرجو دعوته ولا أقبل شهادته »[3] ، ويعلق الجاحظ على مقالة السختيانى بقوله :

« فإذا لم يجز فى الشهادة كان من أن يكون حاكما أبعد » .

رابعا - المعلمون :

وقد اشتهر عن الجاحظ أنه وقف من المعلمين موقفا عدائياً ، وجعلهم موضع سخريته وتندره ، ووضع رسالة فى ذمهم ، وهو فى الحقيقة لم يتهم جملة المعلمين ، ولم يستسقط سوى طائفة منهم ، وهم الذين يعلمون أبناء العامة ، ويغلب عليهم الحمق والغفلة ، نظراً لضيق عقولهم وقلة معارفهم ، واختلالهم بمعايشة الصبيان لهم .

ويستثنى الجاحظ صفوة المعلمين ، ممن يتصفون برجاحة العقل ونباهة الشأن وقوة الشخصية ، ويتضح من حديث الجاحظ عن المعلمين الذين سخر بهم ،

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٤٩
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٤٢
(٣) المرجع ج ٢ ص ٣٥٠

وروى طرائفهم ونوادرهم ، أنهم يمثلون فى عصره شيوخ « المكاتب » الذين كانوا يعلمون الناشئة فى القرى والبوادى إلى زمن قريب فى بلادنا ، ولا يخفى على من خالط أولئك الشيوخ أن نفراً منهم يشبهون من بعض الوجوه طائفة المعلمين التى اختصها الجاحظ بتهكمه وسخريته .

ويوضح الجاحظ فرق ما بين النوعيتين فيؤكد أن المعلمين عنده على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة »[1] .

وقد ساق الجاحظ هذا الكلام بعد أن سرد طائفة من الأقوال السائرة التى يفهم منها استسقاط المعلمين ، ورميهم بالحمق والغفلة من مثل قول بعضهم : « لا تستشيروا معلما ولا راعى غنم ولا كثير القعود مع النساء » ويقول : ومن أمثال العامة : « أحمق من معلم كتاب » وقد ذكرهم صقلاب فقال :

وكيف يرجّى الرأى والعقل عند من
يروح على أنثى ويغدو على طفل[2]

ويقول الجاحظ : « كان ابن شبرمة لا يقبل شهادة المعلمين »[3] .

والحق أن الجاحظ لم يعب المعلمين جملة ، ولم يغمط أهل العلم والفضل منهم حقهم بل أثنى ثناء حسنا على طائفة من جلتهم ، يقول :

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٨

(٣) أخبار الحمقى ص ١٤٠

« فكيف تستطيع أن تزعم أن مثل علي بن حمزة الكسائي ، ومحمد بن المستنير الذي يقال له قطرب ، وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ؟ »[١] .

« وما كان عندنا بالبصرة رجلان أروى لصنوف العلم ، ولا أحسن بياناً من أبي الوزير ، وأبي عدنان المعلمين ، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا »[٢] .

وإذاً فالجاحظ لم يتجنَّ على المعلمين عامة ، ولم يسخر إلا ممن هو أهل للسخرية منهم ، ويبدو أن الجاحظ كان على وعي بالسبب الذي من أجله دخل الخلل والتخليط على عقول بعض المعلمين ، وهو انقطاعهم لمخالطة الصبيان ، وطول مُعاشرتهم لهم ، وما يستتبعه ذلك من ضيق الأفق ، وجمود العقل ، وانحصار التفكير في زاوية ضيقة ، بالإضافة إلى أن مخالطة الصغار تتطلب نزولا إلى مستواهم في التفكير والتعبير ، واستمرار ذلك الدهر الطويل ، يورث في معظم الأحيان نوعاً من البلاهة ، وقد أشار الجاحظ في رسالته عن المعلمين إلى هذا المعنى فقال :

« وقد قالوا : الصبي عن الصبي أفهم ، وبه أشكل . وكذلك الغافل والغافل ، والأحمق والأحمق ، والغبي والغبي ، والمرأة والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا) ؛ لأن الناس عن الناس أفهم ، وإليهم أسكن . فما أعان الله تعالى به الصبيان أن قرَّب طبائعهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلمين .

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٥٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٥٢ .

وسمع الحجاج ـ وهو يسير ـ كلام امرأة من دار قوم، فيه تخليط وهذيان فقال: مجنونة، أو ترقص صبيا.

ألا ترى أن أبلغ الناس لساناً، وأجودهم بيانا، وأدقهم فطنة، وأبعدهم روية، لو ناطق طفلا أو ناغى صبيا، لتوخى حكاية مقادير عقول الصبيان، والشبه لمخارج كلامهم، وكان لا يجد بداً من أن ينصرف عن كل ما فضله الله به بالمعرفة الشريفة، والألفاظ الكريمة، وكذلك تكون المشاكلة بين المتفقين في الصناعات»[1].

ومن ثم نرى في طرائف الجاحظ المتعلقة بتلك النوعية من المعلمين، تسجيلا لطباعهم، وتصويراً لحمقهم، وحكاية لنوادرهم مع الصبيان، وما يتعرضون له من عبث الصغار بهم، وسخرية الكبار من تصرفاتهم، ومن تلك الطرائف:

— «قال الجاحظ: قلت لمعلم: لم تضرب غلمانك من غير جرم؟ قال: جرمهم أعظم الأجرام، يدعون لي أن أحج، وإن حججت تفرقوا في المكاتب، فمتى أحج؟ أنا مجنون؟!»[2].

وجاء إليه معلم فقال: أنت الذي صنفت كتاب المعلمين، تعيبهم؟ قال نعم. قال وذكرت فيه أن بعض المعلمين جاء إلى الصياد وقال: إيش تصطاد، طريا أم مالحا؟ قال: نعم، قال: ذلك أبله ولو كان فيه ذكاء كان يقف فينظر إن خرج طرى علم أو خرج مالح علم!»[3].

(١) رسائل الجاحظ ج ٣ ص ٣٧
(٢) أخبار الحمقى ص ١٤١
(٣) المرجع السابق ص ١٤٢

وقال الجاحظ : مررت بمعلم وقد كتب لغلام – وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ، وأكيد كيداً فمهل الكافرين أمهلهم رويداً – فقلت له : ويحك فقد أدخلت سورة فى سورة قال : نعم ، إذا كان أبوه يدخل[1] شهراً فى شهر ، فأنا أيضاً أدخل سورة فى سورة ، فلا آخذ شيئا ولا ابنه يتعلم شيئا »[2] .

وقال : « مررت بمعلم صبيان وهو جالس وحده وليس عنده صبيانه فقلت له : ما فعل صبيانك ؟ قال : ذهبوا يتصافعون ، فقلت : أذهب وأنظر إليهم ؟ فقال : إن كان ولابد ، فغط رأسك لئلا يحسبوك أنا فيصفعوك حتى تعمى !! »[3] .

وقال الجاحظ : « من أعجب ما رأيت معلما بالكوفة وهو شيخ جالس ناحية من الصبيان يبكى ، فقلت له يا عم : مم تبكى ؟ قال : سرق الصبيان خبزى !! »[4] .

خامساً : البخلاء :

أما نوادر البخلاء فهى من أنفس ما للجاحظ من فكاهات ، وأحفلها بالمتعة ، وأملئها بالسخرية الحاذقة ، والاحتجاج المضحك ، والتلميح البارع ، والتهكم اللاذع .

---

(١) أى يؤخر أجرة شهر حتى يدخل الشهر التالى ويضيع على المعلم أجرة المنقضى منهما .

(٢) أخبار الحمقى ص ١٤٢ (٣) المرجع السابق والصفحة .

(٤) المرجع ص ١٤٣

ويعد كتاب « البخلاء » الأثر الأدبي الفذ الذي يمثل الأدب الفكاهي عند العرب أصدق تمثيل ؛ إذ استطاع أبو عثمان من خلاله أن يحمل القارىء في متعة متصلة من مفتتحه إلى ختامه ، وأطلعنا بصورة بينة على قدراته الفنية ، في اصطناع السخرية ، وحبك الحوار المضحك ، على نحو لم يطاوله فيه أحد ، وبأسلوب لم يسبق إليه ، وقد أشار الدكتور طه الحاجري في تقديمه لكتاب البخلاء إلى أن أحاديث البخل وأخبار البخلاء قبل تناول الجاحظ لها كانت تسير في طريقين :

— طريق دعاة الشعوبية الذين يردون على العرب فخرهم التقليدي بالكرم ويزعمون أن أكثر هذا الفخر كلام لا يفي به الفعل ، والطريق الأخرى يمثلها دعاة الدولة القائمة ، وهم الذين وضعوا أنفسهم في خدمة السلطان ، وكان خلفاء الدولة العباسية بحاجة إلى التشنيع على بني أمية ، فجعل أولئك الرواة يتلقفون أخبار الشنع ما وجدوها ويضمونها ، ويتزيدون فيها على خلفاء بني أمية وعمالهم وسراتهم ...

أخذ الجاحظ هذا الموضوع الذي كان أكبر مثارة للشهوات السياسية والعنصرية ، والذي كان جديراً أن يثير عوامل المشاقة والخاصمة فجعله موضوعا أدبيا خالصا ، ومتعة فنية رائعة ، وكان رهينا بالأغراض الموقوته التي أثير من أجلها ، فصار خالداً خلود النفس الإنسانية[1] .

والحق أن كتاب « البخلاء » جرى بأن يبحث من جوانب متعددة ، وقمين بأن يكون موضوعا لعديد من الدراسات التاريخية والاجتماعية واللغوية

---

(١) مقدمة البخلاء ص ٢٨ — ٣٣ (باختصار) .

والعرقية ، كما أن له أهمية كبرى لمن يريد درس العصر العباسى من الناحية الحضارية ويتعرف على صنوف المآكل والأطعمة والأشربة والحلوى ، وأيضا على كثير من عادات الناس وأعرافهم ، وقد عالج الكتاب المحدثون بعض هذه الجوانب ، أما نحن فسنقتصر حديثنا على موضوع الفكاهة وألوان الطرائف والنوادر التى حشدها الجاحظ فى « بخلائه » وما تنطوى عليه من قيمة فنية ، بحسبانها عملا أدبيا متكاملا ، ويهمنى — قبل أن أعرض لطبيعة الإطار الفكاهى فى البخلاء — أن ألفت القارىء إلى مجموعة من الظواهر المهمة التى تلقى الضوء على أبعاد عبقرية الجاحظ الفنية من خلال المنهج الذى اتبعه فى رسم عالم « البخلاء » الزاخر بالصراع ، الملىء بالصور النابضة ، والدلالات المؤثرة .

وتتلخص تلك الظواهر فيما يلى :

أولا : وجد الجاحظ وهو يشرع فى وضع كتاب « البخلاء » السبيل منفسحا أمام ملكته الأدبية ، فتجلت فى ذلك المؤلف بصورة وضيئة وسارت فى خط مواز لروح المرح عنده ، وهذان — فى اعتقادى — هما رافدا البراعة الفنية فى كتاب البخلاء ، فقد كان المرح جزءا أساسيا فى التكوين النفسى للجاحظ ، ولم تكن فكاهاته مصطنعة ، ولم يكن [illegible] زاوية النوادر ، بل كانت هذه الطبيعة المرحة تغالبه فى سائر كتاباته ، فلما شرع يكتب عن نوادر البخلاء لم يجد حرجا فى أن يرسل العنان لروحه المرحة لتبلغ الغاية فى الاسترسال مع الدعابة والتهكم والسخرية والتندر .

ومن طبيعة الجاحظ أنه إذا تناول مسألة أو عرض لقضية ، فإنه يغوص إلى أعماقها ، ويطوف فى جنباتها ، وميزته بحسبانه شيخ الأدباء أنه امتلك المقدرة البيانية على تسجيل ما يعن له من خواطر ، وما يحصله من معارف ،

وما يدور على ألسنة الناس من اعتقادات ، وما قد يتناقلونه من أساطير ، وناهيك بهذه الميزات من رجل حسبه أنه سطر بأسلوبه الرائع دقائق الحياة فى عصره . وأطلعنا على حيوات الناس ، والخيوط الدقيقة التى تربط بين مناحى البنية الاجتماعية فى عصره . وقلما تيسر لنا أن نظفر بمثل هذه الدقائق ، أو نعايش تلك الأحداث ، كما جعلنا الجاحظ نتمثلها وكأننا نراها بأعيننا ، أقول قلما نظفر بمثل ذلك لدى كاتب غير الجاحظ .

فقد رسم الجاحظ لقارىء البخلاء عالماً زاخراً بالحيوية مليئاً بالصراع ، ولم تنحصر مهمته فى سرد نوادرهم أو حكاية طرائفهم فحسب كما كان يفعل فى فكاهاته الأخرى ، بل أطلع قارئه على « قطاع » من المجتمع فى عصره ، وهم أنصار مذهب الجمع والمنع ، وكأن الجاحظ كان ينقل للأجيال صورة أمينة لذلك الصنف من الناس ، وبالتالى للحياة بصفة عامة فى حواضر العراق بعد أن بلغت الحضارة الإسلامية مبلغها ، وبعد أن أحدثت عوامل التقاء الأجناس وامتزاج الثقافات فى تلك البيئة تأثيراتها . وبعبارة أكثر إيجازاً ، استطاع الجاحظ أن يلقى من خلال كتاب « البخلاء » أضواء مهمة على ملامح الشكل الاجتماعى فى عصره ، وذلك فى إطار فكاهى ، يدل دلالة قوية على أن الكتابة الفنية فى لغة العرب قد بلغت فى عصر الجاحظ طوراً من الرقى جد عظيم .

ولعله لا يخفى على القارىء المتمرس بأسلوب الجاحظ ، الملم بطريقته فى التأليف أن جل ما ينسبه لبخلائه أو يحكيه عنهم من أقوال واحتجاجات هو فى الحقيقة للجاحظ نفسه ، ولسنا نقطع بأن الجاحظ قد نسج هذه الروايات من خياله ، وإنما الذى نرجحه هو أنه وإن يكن مضمون بعض هذه القصص والطرائف ثابت وصحيح النسبة لقائليه ، فإن للجاحظ الدور الأساسى فى صياغتها وترتيبها ،

وإدارتها على النحو الذى يحقق هدفه الفنى فى إمتاع قرائه بهـذا الأثر الأدبى الطريف .

٢ — كانت شخصية الجاحظ أقوى ما تكون ظهوراً « وحضوراً » فى كتاب البخلاء ، فعلى الرغم من اختفائه المصطنع وراء شخصيات عديدة من عامة البخلاء « ومتعاقليهم » ، إلا أنه كان إختفاء له دواعيه الفنية المتمثلة فى جدية الحوار ، وواقعيته ، بيد أن الجاحظ كان « يحضر » فى مواطن محددة ، ولدواعى قوية ، فتحضر بحضوره شخصية العالم الفاقه ، والحكيم الناصح ، الذى يوجّه ويصحح ، ويعلق وينتقد .

من أمثلة ذلك ما ذكره الجاحظ فى أثناء حكايته نوادر المروزيين البخلاء ، إذ استطرد فحكى القصة التالية قال :

« وسمع رجل من المراوزة الحسن[1] ، وهو يحث الناس على المعروف ، ويأمر بالصدقة ، ويقول : ما نقص مال قط من زكاة ، ويعدهم سرعة الخلف ، فتصدّق بماله كله فافتقر ، فانتظر سنة وسنة ، فلما لم ير شيئاً بكر على الحسن فقال : حسنٌ ما صنعت بى ؟ ضمنت لى الخلف ، فأنفقت على عدتك ، وأنا اليوم مذ كذا وكذا سنة أنتظر ما وعدت ، لا أرى منه قليلا ولا كثيراً ، هذا يحل لك ؟ اللص كان يصنع بى أكثر من هذا[2] ؟

ولم يفت الجاحظ أن يعلق على تلك القصة ، مصححاً جهة الخطأ فى فهم المروزى فيقول :

---

(١) يقصد به الحسن البصرى .

(٢) البخلاء ص ٢٧ .

والخلف يكون معجلا ومؤجلا ، ومن تصدّق وتشرط الشروط استحق الحرمان ، ولو كان هـذا على ما توهمه المروزى لـكانت المحنة فيه ساقطة ، ولترك الناس التجارة ، ولما بقى فقير ، ولذهبت العبادة[١] .

ويقول فى موضع آخر :

« وقد عاب ناس أهل المـازح والمدبر[٢] بأمور : منها أن خشـكنانهم[٣] من دقيق شعير ، وحشوه ـ الذى يكون فيه من الجوز والسُّـكر ـ من دقيق خشبـكار[٤] »[٥] .

ثم يعلق الجاحظ على ذلك فيقول :

« وأهل المـازح لا يعرفون بالبخل ، ولـكنهم أسوأ الناس حالا فتقديرهم على قدر عيشهم . وإنما نحـكى عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر ، وبين خصب البلاد وعيش أهل الجدب فأما من يضيّق على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق ، فليس سبيله سبيل القوم .

ومن هذا التعليق يتضح لنا مقدار إدراك الجاحظ للملامح الشخصيات التى جعلها موضوعاً لـكتابه ، وأنه كان على وعى تام بحقيقة البخل ، يهتم بتتبع

---

(١) المرجع السابق والصفحة .

(٢) هما موضعان قرب الرقة .

(٣) نوع من الـكعك يحشى بالجوز والسكر .

(٤) الخشكار : مالا لب له من الشعير . وعلى هذا فوجه الاتهام بالبخل أنهم يصنعون الـكعك من دقيق الشعير ، وبدلا من أن يكون حشوه الجوز والسكر يجعلونه هم من دقيق الشعير أيضاً .

(٥) البخلاء ص ١٢٢ .

مظاهره فى سلوك البخلاء الحقيقيين ، الذين يصدق عليهم هذا الوصف ، ولا يعدوهم إلى غيرهم ، أو يدخل فيهم من نكبتر كهم فى شحهم وتقتيرهم .

وأحياناً يشعر الجاحظ أن فى القصة التى يتقاقلها الناس إغراقاً فى المبالغة ، وبعداً عن الواقع ، مما يجعلها منافية للمعقول ، عصية على التصديق ، فلا يتركها الجاحظ دون أن يوضح للقارىء رأيه فيه .

ومن أمثلة ذلك ما حكاه بقوله(١) :

« وحديث سمعناه على وجه الدهر ، زعموا أن رجلا قد بلغ فى البخل غايته وصار إماماً ، وأنه كان إذا صار فى يده الدرهم ، خاطبه وناجاه ، وفدّاه واستبطأه ، وكان مما يقول له : (كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم من خامل رفعت ، ومن رفيع قد أخملت ، لك عندى ألا تعرى ولا تضحى) ، ثم يلقيه فى كيسه ويقول له : (اسكن على اسم الله فى مكانٍ لا تهان ولا تذلّ ، ولا تزعج منه) ، وإنه لم يدخل فيه درهماً قط فأخرجه . وأن أهله ألحوا عليه فى شهوة ، وأكثروا عليه فى إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك ، ثم حمل درهماً فقط ، فبينما ذاهب إذ رأى حواء قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه ، فقال فى نفسه ، أتلف شيئاً تبذل فيه النفس بأكلة وشربة ؟ والله ما هذا إلا موعظة لى من الله ، فرجع إلى أهله وردّ الدرهم إلى كيسه ، فكان أهله منه فى بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه ... فلما مات وظنوا أنهم قد استراحوا منه قدم ابنه فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : ما كان أدم(٢) أبى ؟ فإن أكثر الفساد إنما يكون فى الإدام .

---

(١) البخلاء ص ١٣١ .
(٢) الأدم : ما يؤكل به الخبز أى شيء كان .

قالوا : كان يغأدم بجبنة عنده ، قال : أرونيها ، فإذا فيها حز كالجدول من أثر مسح اللقمة ، قال : ما هذه الحفرة ؟ قالوا : كان لا يقطع الجبن ، وإنما كان يمسح على ظهره فيحفر كما ترى . قال : فهذا أهلكنى ، وبهذا أقعد فى هذا المقعد ، لو علمت ذلك ما صليت عليه قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ قال : أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة ! ! ثم يعلق الجاحظ منتقداً الجزء الأخير من القصة فيقول[1] :

« ولا يعجبنى هذا الحرف[2] الأخير ؛ لأن الإفراط لا غاية له ، وإنما نحكى ما كان فى الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم مثله ، أو حجة أو طريقة ، فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره » .

و « حضور » الجاحظ يكون مباشراً كما اتضح لنا من النقول التى سقناها ، ويكون متواريا فى بعض الأحيان كأن يهتم بإبراز قيمة تهذيبية بأن يجعل سياق القصة منتهيا بتأكيد حكمة من أقوال المجربين أو مصداقاً لوصية من وصايا الدين .

ولنتأمل هذه الطرفة التى حكاها الجاحظ عن زبيدة بن حميد الصيرفى وجعل نهايتها حديثا شريفا .

قال : وسكر زبيدة ليلة فكسا صديقا له قميصا ، فلما صار القميص على النديم خاف البدوات[3] . وعلم أن ذلك من هفوات السكر . فمضى من ساعته

---

(١) المرجع السابق ١٣٢ (٢) يقصد بالحرف هنا : العبارة .

(٣) البدوات : من بدا له فى الأمر : نشأ له فيه رأى . ويقصد هنا أن يبدو لزبيدة رأى آخر فى الهدية .

إلى منزله ، فجعله برنسكانا[1] لامرأته ، فلما أصبح ، سأل عن القميص وتفقده . فقيل له : إنك قد كسوته فلانا ، فبعث إليه ثم أقبل عليه فقال : ما علمت أن هبة السكران وشراءه وبيعه وصدقته وطلاقه لا يجوز ؟ وبعد فإني أكره ألا يكون لى حمد ، وأن يوجه الناس هذا منى على السكر ، فردّه علىّ حتى أهبه لك صاحيا عن طيب نفس ، فإنى أكره أن يذهب شىء من مالى باطلا ، فلما رآه صمم أقبل عليه فقال : يا هناه[2] ! إن الناس يمزحون ويلعبون ولا يؤاخذون بشىء من ذلك ، فرد القميص عافاك الله . قال له الرجل : إنى والله قد خفت هذا بعينه ، فلم أضع جنبى إلى الأرض حتى جيّبته لامرأتى ، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم فإن أردت بعد هذا كلّه أن تأخذه فخذه ، فقال : نعم آخذه ؛ لأنه يصلح لامرأتى كما يصلح لامرأتك . قال : فإنه عند الصباغ . قال : فهاته . قال : ليس أنا أسلمته إليه . فلما علم أنه قد وقع ، قال : بأبى وأمى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر كله فى بيت وأغلق عليه ، فكان مفتاحه السكر »[3] .

٣ — اهتم الجاحظ فى كتاباته عامة بتتبع كثير من أسرار النفس الإنسانية وتحليل طبائع الناس ، والتغلغل فى سبر دخائلهم ودوافع سلوكهم ونزعاتهم ،

---

(١) البرنسكان : الكساء.

(٢) بمعنى يارجل فى النداء خاصة .

(٣) البخلاء ص ٣٦ والحديث لم أجده بهذا اللفظ ، وروى ابن ماجة فى باب الفتن حديثا بمعناه . . عن أبى الدرداء قال أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم « أن لا تشرك بالله شيئا ، وإن قطعت وحرقت ، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمداً فمن تركها متعمداً برئت منه الذمة ، ولا تشرب الخمر فإنها مفتاح كل شر » .

ويبدو الجاحظ فى هذا الجانب وكأنه خبير من خبراء علم النفس الذين تمرسوا بطبائع الناس ووضعوها تحت ملاحظاتهم وتجاربهم وقتا طويلا . .

ولا يعدم القارىء لكتب الجاحظ ورسائله أن يطالع بين الحين والحين إشارات قيمة من هذا النوع ، فها هو ذا يحلل ظاهرة الكبر ونوازع المتكبرين فى كتابه « الحيوان » فيقول :

« والكبر فى الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة — كعبيدنا من السند ، وذمتنا[1] من اليهود . . والجملة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحتقرين أدنى قدرة ظهر كبره على من تحت قدرته على مراتب القدرة ما لا خفاء به ، فإن كان بماله فى صدور الناس تزيد فى ذلك واستظهرت طبيعته بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق ، وحياص[2] ذلك الفتق ، وسد تلك الثلمة . فتفقد ما أقول لك ، فإنك ستجده فاشيا ، وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكة من الحر ، وشىء قد قتلته علما وهو أنى لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه »[3] .

وهذا الكلام يدل دلالة قوية على تعمق الجاحظ فى تأمل الظواهر النفسية ، وميله إلى بحثها والتعليل لها ، ولا يخفى ما يتسم به تحليله لظاهرة الكبر من عمق النظر ، ودقة البحث وصواب الاستنتاج .

---

(١) يقصد أهل الذمة وهم الذين تربطهم بالمسلمين عهود .
(٢) حياص : خياطة .
(٣) الحيوان ج ٦ ص ٧١

ومثال آخر على هذه النزعة الجاحظية نلمسه في إحدى رسائله وهي رسالة الحاسد والمحسود إذ يقول مبينا طبيعة الحسد وتمكنه من نفس الحاسد :

« وأنا أقول حقا : ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه من ضبطه ، ولا قدر على تسجينه وكتمانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده ويستميله ، ويستنطقه لظهوره عليه ، فهو أغلب على صاحبه من السيد على عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره .

وكان ابن الزبير بالصبر موصوفا ، وبالدهاء معروفا ، وبالعقل موسوما وبالمداراة منهوما[1] ، فأظهر بلسانه حسداً كان أضب[2] عليه أربعين سنة لبني هاشم ، فما انسع قلبه لكتمانه ، ولا صبر على اكتتامه ، لما طالت في قلبه طائلته أظهره وأعلنه ، مع صبره على المكاره ، وحمله نفسه على حتفها ، وقلة اكتراثه والتفاته لأحجار المجانيق التي كانت تمر عليه فتذهب بطائفة من قومه .

حُدِّثت بذلك . . . عن سعيد بن جبير قال : قدت ابن عباس حتى أدخلته على ابن الزبير ، قال[3] : أنت الذي تؤنبني ؟ قال : نعم ، لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس بمؤمن من بات شبعانا[4] وجاره طاو . فقال له ابن الزبير : لمن قلت ذلك ؟ إني لأكتم بغضكم أهل البيت مذ أربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنهما عسيبا نخل . ثم قال لابن الزبير : نعم فليبغ ذاك منك ما عرفتك .

---

(١) المنهوم بالشيء : المولع به . (٢) أضمره .

(٣) أي ابن الزبير .

(٤) كذا جاء مصروفا منونا وهو مسموع .

ثم يعلق الجاحظ على الحديث بقوله :

« ولقد أجلت الرأى ظهراً لبطن وفكرت فى جوابه لابن عباس أن أجد له معنى سوى الحسد فلم أجده ، وكانت وخزة فى قلبه فلم يبدها . وفروع بنى هاشم حول الحرم باسقة ، وعروق دوحاتهم بين أطباقها راسية ، ومجالسهم من أعاليها عامرة ، وبحورها بأرزاق العباد زاخرة ، وأنجمها بالهدى زاهرة فلما خلت البطحاء من صناديدها استقبله بما أكن فى نفسه »[1] .

ولا ريب أن تصريح الجاحظ بأنه أجال الرأى فى تلك الواقعة ، وقلبه ظهراً لبطن — يدل دلالة قوية على اهتمامه بتلك الجوانب الدقيقة ، وتتبع مساربها فى نفوس أصحابها .

كان هذا شأن الجاحظ فى سائر كتاباته ، غير أنه فى كتابه « البخلاء » بخاصة قد أجاد فى تصوير الدقائق النفسية لشخصيات البخلاء الذين عرض لهم بصورة تفوق كتاباته الأخرى التى هى من هذا الباب .

ولعل معالجة موضوع « البخلاء » كانت مدعاة لاهتمام الجاحظ بهذا الجانب على أساس أن البخل نقيصة نفسية ، وأنه شيء فى أصل الطباع .

وتكتسب تحليلات الجاحظ التى من هذا النوع أهمية خاصة بحسبانها صورة لفكره المستنير ، وأثراً من آثار عبقريته الفذة ، ومثالا على براعته فى التصوير النفسى الدقيق ، وتحليل دوافع السلوك لدى البخلاء .

وهذا مثال نسوقه من قصة ابن أبى المؤمل ، وهو أعجوبة فى البخل وإمام فى الاحتيال لتفويت الفرصة على الطامعين فيما لديه .

---

(١) رسائل الجاحظ ج ٣ ص ١٣ وما بعدها .

يقول الجاحظ بعد أن سرد شيئاً من غرائبه وطرائفه :

« وكان إذا كان فى منزله ، فربما دخل عليه الصديق له ، وقد كان تقدمه الزائر أو الزائران . . . فإذا دخل عليه الصديق له ، وقد عزم على إطعام الزائر أو الزائرين قبله ، وضاق صدره بالثالث – وإن كان قد دعاه وطلب إليه – أراد أن يحتال له ، أو الرابع إن ابتلى كل واحد منهما بصاحبه ، فيقول عند أول دخوله وخلع نعله – وهو رافع صوته بالتنويه والتشنيع – : (هات يامبشر لفلان شيئاً يطعم منه ، هات له شيئاً ينال منه ، هات له شيئاً) اتكالاً على خجله أو غضبه أو أنفته ، وطمعاً فى أن يقول : (قد فعلت) .

فإن أخطأ ذلك الشقى وضعف قلبه وحصر ، وقال : (قد فعلت) وعلم أنه قد أحرزه وحصله وألقاه وراء ظهره ، لم يرض أيضاً بذلك حتى يقول : (بأى شىء تغديت ؟) فلا بد له من أن يكذب أو ينتحل المعاريض ، فإذا استوثق منه رباطاً ، وتركه لا يستطيع أن يترمرم[1] ، لم يرض بذلك حتى يقول فى حديث له : (كنا عند فلان فدخل عليه فلان فدعاه إلى غدائه فامتنع ، ثم بدا له فقال : (فى طعامكم بقيلة[2] أنتم تجيدونها ثم تناوله) ، فلا يزال فى وثاقه وفى سد الأبواب عليه ، وفى منعه البدوات ، حتى إذا بلغ الغاية قال : (يا مبشر أما إذ تغدى فلان واكتفى فهات لنا شيئاً نعبث به) .

فإذا وضعوا الطعام أقبل على أشدهم حياء ، أو على أشدهم أكلا فسأله عن حديث حسن ، أو عن خبر طويل ، ولا يسأله إلا عن حديث يحتاج فيه إلى الإشارة باليد أو الرأس ، كل ذلك ليشغله ، فإذا هم أكلوا صدراً أظهر الفتور

---

(١) يترمرم : يتحرك .

(٢) لعلها نوع مما يضاف إلى الطعام من المشهيات .

والتشاغل والتنقر كالشبعان الممتلىء ، وهو فى ذلك غير رافع يده ولا قاطع أكله ، إنما هو النتف بعد النتف ، وتعليق اليد فى خلل ذلك ، فلا بد من أن ينقبض بعضهم ويرفع يده وربما شمل ذلك جماعتهم ، فإذا علم أنه قد أحرزهم واحتال لهم ، حتى يقلعهم من مواضعهم من حول الخوان ، ويعيدهم إلى مواضعهم من مجالسهم ، ابتدأ الأكل ، فأكل أكل الجائع المقرور[1] ... »[2].

وبمثل ذلك التتبع الدقيق لسلوك ابن أبى المؤمل يسقط الجاحظ قناعه الزائف ، ويسخر من تظاهره بإكرام أصدقائه وضيفانه حين يبادر فيدعو لهم بالطعام ، وهو لا يهدف إلا إلى إخجالهم ، وإلى أن يستنزع منهم اعترافاً بأنهم قد أكلوا ، حتى إذا تم له ذلك تمادى فى إيصاد السبل أمامهم حتى لا يعدل أحدهم عن موقفه ، أو يندفع حين يرى الطعام ، ولا يقف بخل ذلك الرجل عند هذا الحد ، بل يبلغ به الأمر أن يحتال بكل سبيل حتى يحرم الذين سمح لهم بأن يشاركوه الطعام ، ويقصيهم عن المائدة ، وكأنه فى ذلك كله طرفاً معهم فى معركة سلاحه فيها الحيل الماكرة ، والخدع العجيبة .

وقد ينطق بخلاء الجاحظ بما يكشف عن نوازع نفوسهم ، ودوافع سلوكهم على نحو ما نرى فى قصة الحزامى التى حكاها الجاحظ بقوله :

« واستسلف منه على الأسوارى مائة درهم ، فجاءنى وهو حزين منكسر ، فقلت له : إنما يحزن من لا يجد بداً من إسلاف الصديق مخافة ألا يرجع إليه

---

(١) المقرور : من القر ، وهو البرد الشديد ، وإذا اجتمع على الإنسان الجوع والبرد عظمت رغبته فى الطعام . والمراد : النهم والإقبال على الأكل بشراهة .

(٢) البخلاء ص ٩٩ — ١٠٠ .

ماله ولا يعد ذلك هبة منه ، أو رجل يخاف الشكية[1] ، فهو إن لم يسلفه كرماً أسلف خوفاً ، وهذا باب الشهرة فيه هى قرة عينك ، وأنا واثق باعتزامك وتصميمك ، وبقلة المبالاة بتبخيل الناس لك فما وجه انكسارك واغتمامك ؟

قال : اللهم غفراً ! ليس ذاك بى ، إنما بى أنى كنت أظن أن أطماع الناس قد صارت بمعزل عنى ، وآيسة منى ، وأنى قد أحكمت هذا الباب وأتقنته ، وأودعت قلوبهم اليأس ، وقطعت أسباب الخواطر . . . إن من أسباب إفلاس المرء طمع الناس فيه ، لأنهم إذا طمعوا فيه احتالوا له الحيل ، ونصبوا له الشرك[2] ، وإذا يئسوا منه فقد أمن ، وهذا المذهب من « على » استضعاف شديد .

وما أشك أنى عنده غمر[3] ، وأنى كبعض من يأكل ماله ، وهو مع هذا خليط وعشير ، وإذا كان مثله لم يعرفنى ، ولم يتقرر عنده مذهبى ، فما ظنك بالجيران ، بل ما ظنك بالمعارف ؟ أرانى أنفخ فى غير فحم ، وأقدح بزند مصلد . ما أخوفنى أن أكون قد قصد إلىّ بقول ، ما أخوفنى أن يكون الله فى سمائه قد قصد إلى أن يفقرنى[4] .

٤ — رسم الجاحظ صوراً دقيقة لطبائع البخلاء ومنازعهم ، واستطاع أن يحلل ظاهرة البخل تحليلا رائعاً ، ويستبطن انعكاساتها على سلوك البخلاء

---

(١) الشكية : الشكوى .
(٢) الشرك — بضمتين — جمع شرك — بالفتح — : حبائل الصائد .
(٣) الغمر من الناس : غير المجرب للأمور .
(٤) البخلاء ص ٦١ .

استنباطاً عجيباً ، بحيث أصبح من اليسير عليه أن يدل القارىء على المعالم المميزة لمسالك كل طائفة منهم .

والطريف أن الجاحظ كان منطلقه فى فهم البخل وتحليله منطلقاً سديداً ، فلم يقف من بخلائه موقف العداء ، ولم يشنع عليهم ولم يجاوز القصد فى تصويره لهم . ومن شواهد ذلك ما نراه فى ثنايا أقاصيصه التى يرويها عن بخلهم من أن ينعت بعضهم بنعوت تدل على الإقرار بفضلهم أو التنويه بمكانتهم فيما يحذقونه من فنون أو صناعات ، أو ما يتحلى به بعضهم من صفات أخرى مقبولة . فتراه يقول – مثلا – فى بداية حديثه عن قصة أحمد بن خلف :

« ومن طياب البخلاء أحمد بن خلف اليزيدى »[1]، ويقول عن الحزامى :

« كان أبخل من برأ الله ، وأطيب من برأ الله »[2] ، ويقول عن أبى سعيد المدائنى :

« كان إماماً فى البخل عندنا بالبصرة ، وكان من كبار المعينين[3] ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ، شديد العارضة ، حاضر الحجة ، بعيد الرؤية »[4] .

وبخلاء الجاحظ ليسوا صنفاً واحداً ، وإنما هم أصناف شتى وفرق متنوعة ،

---

(١) البخلاء ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) المعينين نسبة إلى العينة ، وهى ضرب من المعاملات المالية يشبه أن يكون احتيالا للخروج عن الربا ، ولها صور متعددة . راجع النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ج ٣ ص ١٦٤ ، وأيضاً شروح الحاجرى على البخلاء .

(٤) البخلاء ص ١٣٧

فنهم من يحب أن يوصف بالبخل ، ويسره أن يشيع عنه ذلك للقاصى والدانى ، كأبى محمد الحزامى الذى سقنا قصته قبل قليل .

ومنهم من يتحاشى هـذا الوصف ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ويبالغ فى إخفاء بخله ، كابن أبى المؤمل الذى فضحه الجاحظ فى حواره معه حول الإقلال من الخبز على مائدته . ومن هذا الصنف أيضاً الداردريشى الذى كان يتخذ من إظهار البشر والسرور فى لقائه للناس ستراً دون ماله .

ومنهم من لا يعبأ بهذا الوصف ، ولا يأبه لمن يعيبه به بل يجادله حوله ويسخر منه ، ويحتج لرأيه ومذهبه فى الانتصار للبخل ، ومن هؤلاء : سهل ابن هارون ، والـكندى ، والثورى ، وابن التوأم ، وغيرهم .

ملامح الإطار الفكاهى لكتاب البخلاء

أشاع الجاحظ فى كتاب البخلاء روح المرح ، وجعله معرضا للفكاهة الراقية التى تلذ النفس والعقل ، وبرع فى إمتاع قرائه بألوان شتى من التهكم الموجع ، والاحتجاج الطريف ، والخبر النادر العجيب ، وفضلا عن ذلك كله لم يخله من الفوائد والمعارف النافعة من قولة بليغة أو حكمة سديدة ، أو رأى صائب ، أو تقرير مفيد .

ويمكننا القول بأن أبرز مقومات الإطار الفكاهى فى « البخلاء » تتمثل فى الجوانب التالية :

١ — الاحتجاجات المضحكة :

ونعنى بها تلك المناظرات التى أدارها الجاحظ بين « متعاقلى » البخلاء من ناحية والمتعقبين لهم من ناحية أخرى ، فهذه المناظرات تدل على أن الجاحظ لم يرد أن يجعل كتابه سرد النوادر البخلاء فحسب وإنما أراد أن يضفى على مؤلفه طابع الواقعية ، ويجعله موضوعا حيا ، يجذب انتباه القارىء ، ويشوقه لمتابعة تلك المناظرات والخصومات التى تأخذ شكلا جاداً ، فى حين يكون مضمونها هزلا وسخرية ، ولا ريب أن هذه المحاورات تضفى على كتاب « البخلاء » ظلالا مشوقة ، بحسبانها تنقل القارىء إلى مسرح الأحداث — إن صح هذا التعبير — فتجعله يعايش أولئك القوم ، ويسمع حوارهم ، ويشهدهم فى أنديتهم ومجالسهم ، وبهذا يكون الجاحظ قد أشاع « الواقعية » فى فكاهات البخلاء ، حتى لقد يحار القارىء فى بعض الأحيان ، فلا يدرى وجه الصواب فى احتجاجات أولئك البخلاء ، أهى صحيحة ؟ أم زائفة ؟ وذلك لأن الجاحظ

إمعانا معه فى حيوية الحوار وجديته ـ فقد ساق على ألسنة بخلائه حقائق لا تقبل النقض ، ولكننا عند التأمل نجد أن استنادهم إليها غير مسلم لهم .

وهذه قطعة من احتجاج أبى عبد الرحمن الثورى للرأس يتضح منها ما قلناه فقد كان أبو عبد الرحمن ـ كما ذكر الجاحظ ـ يعجب بالرءوس ويحمدها ويصفها وكان لا يأكل اللحم إلا فى يوم أضحى ، أو من بقية أضحيته ، أو يكون فى عرس أو دعوة أو سفرة ، وكان سمى الرأس عرساً لما يجتمع فيه من الألوان الطيبة ، وكان يسميه مرة الجامع ومرة الكامل .

ثم يخلص الجاحظ إلى احتجاجه للرأس وبيان فضله ومكانته فيقول : « الرأس شىء واحد ، وهو ذو ألوان عجيبة وطعوم مختلفة ، وكل قدر وكل شواء فإنما هو شىء واحد ، والرأس فيه الدماغ فطعم الدماغ على حدة ، وفيه العينان وطعمهما شىء على حدة ، وفيه الشحمة التى بين أصل الأذن ومؤخر العين وطعمها على حدة ، على أن هذه الشحمة خاصة أطيب من المخ و[illegible] الزبد وأدسم من السلاء[1] وفى الرأس اللسان وطعمه شىء على حدة ، وفيه الخيشوم والغضروف الذى فى الخيشوم وطعمهما شىء على حدة ، وفيه لحم الخدين وطعمه شىء على حدة » .

ثم ينتقل به الجاحظ نقلة أخرى فى الاحتجاج فيقول :

الرأس سيّد البدن ، وفيه الدماغ وهو معدن العقل ، وفيه يتفرق العصب الذى فيه الحس ، وبه قوام البدن ، وإنما القلب باب العقل ، كما أن النفس هى المدركة ، والعين هى باب الألوان ، والنفس هى السامعة الذائقة ، وإنما الأنف

---

(١) السلاء : السمن ذهب ما فيه من آثار اللبن .

والأذن بابان ، ولولا أن العقل فى الرأس لما ذهب من الضربة تصيبه ، وفى الرأس الحواس الخمس ، وكان ينشد قول الشاعر :

إذا ضربوا رأسى وفى الرأس أكثرى
وغودر عند الملتقى ثَمَّ سائرى[1]

وهذا الاحتجاج وخصوصاً الجزء الأخير منه – والذى لا أرتاب فى أن الجاحظ قد صاغه بأسلوب وحبكه حبكا – هـذا الاحتجاج لا مطعن فيه ولا اعتراض عليه ولـكن ما علاقة ذلك الـكلام الذى يؤكد فيه أن الرأس سيد البدن ومعدن العقل . . إلخ ما علاقته بأكل الرءوس ؟ والاقتصار عليها دون سائر ألوان اللحم ؟ لا شك أنه ضرب من السفسطة وقلب الحقائق هروبا من المواجهة الجدلية الصحيحة .

وهذه الظاهرة بعينها نراها فى وصية أبى عبد الرحمن لابنه فى يوم الرءوس فقد كان يقول له بعد أن يقعده معه على الخوان وقبل أن يأكل كلا ما كثيراً معه : أى بنى عوّد نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش الأفاعى ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم الأكل إدامة النعاج ولا تلقم لقم الجمال . . . إن الله قد فضلك فجعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعاً ، واحذر سرعة الـكِظّة[2] وسرف البطنة ... واعلم أن الشبع داعية البشم ، وأن البشم داعية السقم ، وأن السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميتة مات ميتة لئيمة . . . إلى آخر ما قال »[3] وهى أقوال وتقريرات تعد من قبيل الحقائق

---

(١) البخلاء ص ١٠٧ .
(٢) الـكظة – بكسر الـكاف – : البطنة ، وشىء يعترى من امتلاء الطعام .
(٣) البخلاء ص ١٠٩ .

والمسلمات التي لا يماري فيها أحد ، غير أن وجه الحيلة فيها أن تساق تدليلا على صواب وجهة ذلك البخيل المقتر ، ومن قال له إن الاعتدال في الإنفاق على نفسه وأهله سيقوده إلى ما ذكر من التخمة والبشم ؟ ويندرج في الاحتجاج المضحك إلى أن يرتقي بالقضية إلى الموت والهلاك .

وقد يكون مصدر الواقعية في الحوار راجعاً إلى حشد الأقوال السائرة والأشعار الذائعة والاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأقوال الحكماء والقادة وأهل الرأي .

ومن أمثلة ذلك ما جاء في رسالة أبي العاص بن عبد الوهاب إلى الثقفي والتي ذم إليه فيها مذهبه في البخل ، وحمل على تفضيله كلام البخلاء ، واستطرد من ذلك إلى أن قال[1] :

« ... والشاعر أبصر بكم حيث يقول :

فإن سمعت بهلك للبخيل فقل ... بعداً وسحقا له من هالك مودى
تراثه جنة للوارثين إذا ... أودى وجثمانه للترب والدود

وقال آخر :

تبلى محاسن وجهه في قبره ... والمال بين عدوه مقسوم

ثم يسوق شيئا من أقوال الأولين فيقول :

« ولقد قال معاوية : « من لم يكن من بني عبد المطلب جواداً فهو حيل[2]

---

(١) البخلاء ص ١٥٥ وما بعدها .

(٢) الحيل — كأمير — : الدعي الغريب .

ومن لم يكن من آل الزبير شجاعاً فهو لزيق[1] . . . وقال ابن أبى بردة : لولا شباب ثقيف وسفهاؤهم ما كان لأهل البصرة مال » . . . وذكروا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : لم يضع درهماً على درهم ولا لبنة على لبنة ، وملك جزيرة العرب فقبض الصدقات ، وجبيت له الأموال ما بين عذار العراق ، إلى شحر عمان ، إلى أقصى مخاليف اليمن ، ثم توفى وعليه دين ، ودرعه مرهونة ، ولم يسأل حاجة قط فقال : لا . وكان إذا سئل أعطى ، وإذا وعد أو أطمع كان وعده كالعيان وإطماعه كالإنجاز .

وقال للأنصار : من سيّدكم ؟ قالوا : جدّ بن قيس على أنه يزنّ[2] فينا ببخل . قال : وأى داء أدوى من البخل ! فجعله داء ثم جعله من أدوى الأدواء . وقال : السخاء من الحياء ، والحياء من الإيمان . وقال : إن الله جواد يحب الجود » .

وهكذا يفيض أبو العاص فى إيراد الأحاديث الشريفة ، والأقوال الحكيمة والأشعار التى تذم البخل والبخلاء .

وهذه الظاهرة نجدها أيضاً فى رد ابن التوأم على الرسالة المتقدمة لأبى العاص ينقض عليه ما أورده فيها ، ويعارض ما استند إليه من أدلة بشواهد أخرى يسوقها على هذا النحو يقول[3] :

« فإن كنتم الشعراء تفضلون ، وإلى قولهم ترجعون ، فقد قال الشاعر :

قليل المال تصلحه فيبقى   ولا يبقى الكثير على الفساد

---

(١) الذى لزق بنسب قوم وليس منهم .

(٢) يتهم .

(٣) البخلاء ص ١٨١ وما بعدها .

وقد قال الشماخ بن ضرار :

لمال المرء يصلحه فيغنى مفاقره أعف من القنوع

وقال أبو العتاهية :

أنت ما استغنيت عن صا حبك الدهر أخوه
فإذا احتجت إليه ساعة مجك فوه

وقال عروة بن الورد :

ذريني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرهم الفقير
وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسب وخير
ويقصيه الندى وتزدريه حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن الغنى رب غفور

ثم ينتقل إلى الاحتجاج بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

« ... وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهاكم عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » ، وقال : « خير الصدقة ما أبقت غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » .

وهكذا يطوف بنا الجاحظ مع تلك النوعية من « بخلائه » وهى نوعية « المتعاقلين » ليمتع عقولنا بمناظراتهم ومطارحاتهم التى يستبين منها مقدرة الجاحظ على التفنن فى أساليب الاحتجاج ، بما يبرز طابع العقلية الجاحظية التى مرنت على ذلك النمط من التفكير ، والتى ألفت أن تحتج للشىء ولضده فى نفس الوقت .

ولايخفى أن هذه الشواهد والاستدلالات تعد من أهم دعائم الجدية الشكاية، التى غدا معها موضوع البخل والبخلاء زاخراً بالحيوية مثيراً الجدال والنقاش ، يشتجر فيه البخلاء مع من يعيبونهم ويذمون مذهبهم .

٢ — غرابة الأخبار وطرافتها :

والجاحظ أبو هذا الفن وفارس تلك الحلبة ، وذلك لسعة معارفه ، وتنوع ثقافاته ، وشمول رواياته ، وكثرة ما اطلع عليه من كتب ، وما حصله من أخبار وغرائب بمخالطته للرواة وأهل العلم على اختلاف طبقاتهم ومنازعهم .

والقارئ بطبعه شغوف بالطريف النادر، مشوق لسماع الغريب غير المألوف ، وقد أجاد الجاحظ فى إمتاع قارئ البخلاء ، وأشبع نهمه إلى هذا النوع من الطرائف ، وتلك إحدى مقومات الفكاهة فى البخلاء ، ومن أمثلة ذلك ما حكاه الجاحظ عن بخل أهل مرو ، قال(١) :

قال ثمامة : لم أر الديك فى بلدة قط إلا وهو لافظ ، يأخذ الحبة بمنقاره ثم يلفظها قدّام الدجاجة ، إلا ديكة مرو ، فإنى رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما فى مناقيرها من الحب . قال : فعلمت أن بخلهم شىء فى طبع البلاد وفى جواهر الماء ، فمن ثم عمّ جميع حيوانهم .

قال الجاحظ : فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد فقال : كنت عند شيخ من أهل مرو ، وصبىّ له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له : إما عابثاً ، وإما ممتحناً : أطعمنى من خبزكم . قال : لا تريده ، هو مرّ . فقلت : فاسقنى من مائكم . قال : لا تريده ، هو مالح . قلت : هات لى من كذا وكذا . قال : لا تريده ، هو كذا وكذا . إلى أن عددت أصنافاً كثيرة ، كل ذلك

(١) البخلاء ص ١٨ .

يمنعنيه ويبغضه إلى ، فضحك أبوه وقال : هذا من علته ما تسمع ؟ يعنى أن البخل طبع فيهم وفى أعراقهم وطينتهم .

ويحدث الجاحظ عن نفسه يقول[١] :

ورأيت أنا حمّارة منهم ، زهاء خمسين رجلا ، يتغدون على مباقل بحضرة قرية الأعراب ، فى طريق الكوفة ، وهم حجاج ، فلم أر من جميع الخمسين رجلين يأكلان معا ، وهم فى ذلك متقاربون ، يحدث بعضهم بعضاً ، وهذا الذى رأيته منهم من غريب ما يتفق للناس .

ويحكى الجاحظ من طرائف أبى القماقم نوادر غريبة ، وحكايات طريفة منها[٢] : أنه تعشق واحدة ، فلم يزل يجمشها ، ويبكى بين يديها حتى رحمته ، وكانت مكثرة وكان مقلا . فاستهداها هريسة ، وقال : أنتم أحذق بها ، فلما كان بعد أيام تشتهى عليها رءوساً ، فلما كان بعد قليل طلب منها حيسة[٣] ، فلما كان بعد ذلك تشهى عليها طفيشيلة[٤] ، قالت المرأة : رأيت عشق الناس يكون فى القلب وفى الكبد وفى الأحشاء ، وعشقك أنت ليس يجاوز معدتك .

ومنها أيضاً :

أنه ألح على قوم عند الخطبة إليهم ، يسأل عن مال المرأة ويحصيه ويسأل

---

(١) المرجع السابق والصفحة .
(٢) البخلاء ص ١٢٤
(٣) الحيس : خليط من التمر واللبن المخض والسمن يصنع على نحو خاص .
(٤) الطفيشيل : نوع من المرق ، فالطفيشيلة طعام يعمل بهذا المرق .

عنه ، فقالوا : قد أخبرناك بما لها ، فأنت أى شيء مالك ؟ قال : وما سؤالكم عن مالى ؟ الذى لها يكفينى ويكفيها ! !

وينقل الجاحظ عن بعض رواته أنه قال :

كان عندنا رجل من بنى أسد ، إذا صعد ابن الأكار إلى نخلة له، ليلقط له رطباً ملأ فاه ماء — حتى لا يستطيع أن يأكل شيئاً مما يلقطه وهو بأعلى النخلة — فسخروا به وقالوا له : إنه يشربه ويأكل شيئاً على النخلة ، فإذا أراد أن ينزل بال فى يده ، ثم أمسكه فى فيه . . . قال . فكان بعدها يملأ فاه من ماء أصفر أو أخضر ، لكيلا يقدر على مثله فى رءوس النخل[1] .

وفى قصة أبى سعيد المدائنى الذى يذكر عنه الجاحظ أنه كان إماماً فى البخل عند أهل البصرة وأنه كان من كبار المعينين ومياسيرهم ، وكان شديد العقل ، شديد العارضة حاضر الحجة ، بعيد الروية .

وكانت له حلقة يقعد فيها أصحاب العينة والبخلاء الذين يتذاكرون الإصلاح فبلغهم أن أبا سعيد يأتى الخربة فى كل يوم ليقتضى رجلا هناك خمسة دراهم فضلت عليه ، وقالوا : هذا خطأ عظيم وتضييع كثير ، وإنما الحزم أن يتشدد فى غير تضييع ، وصاحبنا هذا قد رجع على نفسه بضروب من البلاء .

فاجتمعوا عليه على طريق التفرغ والاستفادة منه ، قالوا : نراك تصنع شيئاً لا نعرفه ، والخطأ منك أعظم منه من غيرك ، قد أشكل علينا هذا الأمر فأخبرنا عنه ، فقد ضاقت صدورنا به ، خبرنا عن مضيك إلى الخربة لتقتضى

---

(١) البخلاء ص ١٣٣ .

خمسة دراهم ، فواحدة أنا لا نأمن عليك انتقاض بدنك وقد خلا من سنك ، وأن تمتل فتدع القاضى للكثير بسبب القليل .

وثانية أنك تنصب هذا النصب ، فلابد لك من أن تزداد فى العشاء إن كنت ممن يتعشى ، أو تتعشى إن كنت ممن لا يتعشى ، وهذا إذا اجتمع كان أكثر من خمسة دراهم ، وبعد فإنك تحتاج أن تشق وسط السوق ، وعليك ثيابك ، والحمولة[1] تستقبلك ، فمن هوهنا نترة ومن هوهنا جذبة ، فإذا الثوب قد أودى ، ومن ذلك أن نعلك تنقب وترق وساق سراويلك تتسخ وتبلى ، ولعلك أن تعثر فى نعلك فتقدها[2] قدًّا ، ولعلك تهرتها[3] هرتا ، وبعد فاقتضاء القليل أدى بك إلى هذا وما بلغت منه شيئاً ، وإنك أفضل ، إلا أنا نحب أنك تجلى عن الأمر بشيء فليس كلما يثق لك بالصواب فى كل شىء .

قال أبو سعيد : أما ما ذكرتم من انتقاض البدن ، فإن الذى أخاف على بدنى من الدعة ، ومن قلة الحركة أكثر ، وما رأيت أصح أبدانا من الحمالين والطوافين [illegible] القوم قبلى إن يموتوا لم يكن هم [illegible] ولربما أقمت فى المنزل لبعض الأمر ، فأكثر الصعود والنزول خوفا من قلة الحركة ، وأما [illegible] بالبعيد عن القريب ، فإنى لا أعرض للبعيد حتى أفرغ من القريب ، وأما ما ذكرتم من الزيادة فى الطعم فقد أيقنت نفسى واطمأن قلبى على أنه ليس لنفسى عندى إلا مالها ، وأنها إن حاسبتنى أيام النصب حاسبتها أيام الراحة فستعلم حينئذ أن أيام الخريبة من أيام ثقيف ، وأما ما ذكرتم من تلقى الحمولة ومن النتر والجذب ، فأنا أقطع عرض السوق من قبل أن يقوم أهل السوق لصلاتهم ،

---

(١) الحمولة : الدواب المحملة .
(٢) تقدها : تقطعها .
(٣) تهرتها : تمزقها .

ثم يكون رجوعى على ظهر السوق[1] ، وأما ما ذكرتم من شأن النعل والسراويل ، فإنى من لدن خروجى من منزلى، إلى أن أقرب من باب صاحبى، فإنما نعلى فى يدى ، وسراويلى فى كمى ، فإذا صرت إليه لبستهما ، فإذا فصلت من عنده خلعتهما . فهما فى ذلك اليوم أودع أبدانا وأحسن حالا . ثم خاطبهم قائلا :

بقى الآن لكم مما ذكرتم شىء ؟ قالوا : لا . قال : فها هنا واحدة تفى بجميع ما ذكرتم . قالوا : وما هى ؟ قال : إذا علم القريب الدار ومن لى عليه ألوف الدنانير ، شدة مطالبتى للبعيد الدار ومن ليس لى عليه إلا الفلوس ـ أنى بحق ولم يطمع نفسه فى مالى . وهذا تدبير يجمع لى إلى رجوع مالى طول راحة بدنى . ثم أنا بالخيار فى ترك الراحة لأنى أقسمها على الأشغال حينئذ كيف شئت . وأخرى أن هذا القليل لو لم يكن فضلة من كثير ، وموصولا بدين لى مشهور ، لجاز أن أتجافى عنه . فأما أن أدع شيئاً يطمع فى فضول ما يبقى على الغرماء ، فهذا ما لا يجوز . فقاموا وقالوا بأجمعهم : لا والله لا سألناك عن مشكلة[2] !

وموطن الغرابة والطرافة فى هـذه القصة أننا نطلع من خلالها على أن منتحلى البخل وتثمير المال كان لهم ما يشبه « الرابطة » يلتقى أعضاؤها ليتدارسوا فيما بينهم شئون طائفتهم ، وينظروا فيما يعود بالنفع على عصبتهم ، وربما وقع الجدال بينهم واحتد النقاش حول مسلك واحد من المنتمين إلى رابطتهم حتى ولو كان ذلك « الواحد » يشبه أن يكون موضعه بينهم موضع الإمام كأبى سعيد المدائنى .

هذا إلى أن موضوع الحوار الذى أشركنا الجاحظ فى متابعته أدخل فى الغرابة

---

(١) يقصد من طريق خلف السوق ليس به زحام

(٢) البخلاء ص ١٣٨ ـ ١٣٩

والتشويق ، لأنه يعكس اهتمام أولئك القوم بمساءلة أبى سعيد و « استجوابه » لما بدر منه من تضييع ، فيتصدى لهم المدائنى مبيناً وجهته فى ذلك التدبير ، وينفى ما نسبوه إليه من تضييع حتى يتيقن أصحابه فى نهاية الأمر أنه أبعد نظراً وأصوب تدبيراً مما ظنوا .

ويصف الجاحظ بخل « الغزّال » فيقول :

« وكان الغزال أعجوبة فى البخل وكانت له قطعة أرض أكرى نصفها من سماك ، وكان يجيء من منزله ومعه رغيف فى كمه ، فكان أكثر دهره يأكله بلا أدم ، فإذا أعيا عليه الأمر أخذ من ساكنه جوافة[1] بحبة وأثبت عليها فلساً فى حسابه ، فإذا أراد أن يتغدى أخذ الجوافة فمسحها على وجه الرغيف ، ثم عض عليه ، وربما فتح بطن الجوافة فبطن جنبيها ، وبطنها باللقمة بعد اللقمة ، فإذا خاف أن ينهكها ذلك وينقض بطنها ، طلب من ذلك السماك شيئاً من ملح السمك فحشا جوفها لينفخها ، وليوهم أن هذا هو ملحها الذى ملّحت به ، ولربما غلبته شهوته فكدم طرف أنفها ، وأخذ من طرف الأرنبة ما يسيغ به لقمته ، وكان ذلك منه لا يكون إلا فى آخرها لقمة ليطيّب فمه بها ، ثم يضعها فى ناحية ، فإذا اشترى من امرأة غزلا أدخل تلك الجوافة فى ثمن الغزل ، من طريق إدخال العروض وحسبها عليها بفلس ، فيسترجع رأس المال ، ويفضل الأدم[2] .

---

(١) الجوافة : نوع من السمك ، وليس من جيده ، ويدل سياق القصة على أنها مملحة .

(٢) يفضل الأدم : أى يربح الائتدام وهو ما يأكل به رغيفه ، والقصة فى البخلاء ص ١٢٠ .

٣ ـ المغالطات المرحة :

وهى تعتمد على قلب الحقيقة ، أو الاحتيال لفهمها على نحو غير صحيح بغية التخلص من مأزق محرج ، أو الاسترسال فى الاحتجاج الباطل من قبل البخيل الذى يهمه أن يظهر للناس بمظهر معقول ، وينفى عن تصرفاته شبهة الشذوذ ، ومن شواهد تلك المغالطات فى كتاب البخلاء ما حكاه الجاحظ عن أحد رواته فقال :

« كان عندنا رجل مقلّ ، وكان له أخ مكثر ، وكان مفرط البخل ، شديد النفج ، فقال له يوماً أخوه : ويحك ! أنا فقير معيل ، وأنت غنى خفيف الظهر ، لا تعيننى على الزمان ، ولا تواسينى ببعض مالك ، ولا تتفرّج لى عن شىء ؟ والله ما رأيت قط ولا سمعت بأبخل منك . قال : ويحك ! ليس الأمر كما تظن ، ولا المال كما تحسب ، ولا أنا كما تقول فى البخل واليسر ، والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك منها خمس مائة ألف درهم ، يا هؤلاء فرجل يهب ضربة واحدة خمس مائة ألف يقال له بخيل ؟ ! »[1] .

ويشبه هذا ما حكاه الجاحظ عن الحزامى وهو ينتصر لمذهبه فى البخل ، ويرد على الأقوال السائرة التى يرددها أنصار الجود ودعاة السخاء فيقول : « ويقولون : « ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك » . فما يقولون إن كان أقصر منى أليس يتخيل فى قميصى ؟ وإن كان طويلا جداً وأنا قصيراً جداً فلبسه أليس يصير آية للسائلين ؟ فمن أسوأ أثراً على صديقه ممن جعله ضحكة للناس ؟ ما ينبغى أن أكسوه حتى أعلم أنه فيه مثلى ، ومتى يتفق هذا ، وأنى ذاك محيا وممات ؟ ! »[2] .

---

(١) البخلاء ص ١٩٥ . (٢) البخلاء ص ٦١ .

وقد تأتى المغالطة نتيجة للمبالغة فى التصوير الساخر كالذى يصنعه الجاحظ ، وهو يعرض علينا صوراً من بخل أهل مرو ، وهى صور لا تخلو من المبالغة التى تصل فى بعض الأحيان إلى المغالطة الباطلة ، والألاعيب العقلية المروّجة ، إلا أن الناس يتقبلونها ويتندّرون بها على أساس أنها ضرب من اللهو البرىء والتفكه المباح .

مثال ذلك ما حكاه الجاحظ عن واحد من رواته قال :

« ناس من المراوزة إذا لبسوا الخفاف فى الستة أشهر التى لا ينزعون فيها خفافهم ، يمشون على صدور أقدامهم ثلاثة أشهر ، وعلى أعقاب أرجلهم ثلاثة أشهر حتى يكون كأنهم لم يلبسوا خفافهم إلا ثلاثة الأشهر مخافة أن تنجرد نعال خفافهم أو تنقب »(١) .

وعنصر المغالطة واضح فى هذه القصة على الرغم من إعجابنا بها لطرافتها وغرابتها ، إلا أننا عند التأمل نجدها بعيدة عن المعقول ، ولو أننا تصورنا أناساً يمشون على صدور أقدامهم مرة ، ثم على أعقاب أرجلهم مرة أخرى ، لما استطعنا أن نصدق أن هؤلاء يمكن أن يعيشوا فى دنيا الناس ، ويحبون حياة الأسوياء ، إلا أن يكونوا أعضاء فى مجموعة من « المهرجين » فى إحدى دور اللهو .

***

---

(١) البخلاء ص ٢٨ .

فكاهات شتى :

ويبقى بعد أن طوفنا مع موضوعات الفكاهة عند الجاحظ وألممنا بأسلوب معالجته لكل موضوع – تبقى فكاهات وطرائف أخرى متنوعة نثرها فى كتبه ورسائله مما لا يدخل ضمن النوعيات السالفة التى لاحظنا أنها استحوذت على اهتمامه وشغلت حيزاً كبيراً فى أدبه الفكاهى .

وتشمل الطرائف التى لم نتحدث عنها بعض الفكاهات التى حكاها الجاحظ عن نفسه ، كما تشمل فكاهات متنوعة تحمل فى طياتها إشارات ذات دلالات قوية ، إذ تلمس مشكلات اجتماعية وفكرية ، وترمى إلى الإصلاح عن طريق السخرية من السلوك المعوج ، أو الخلق الذميم تماما كما فعل الجاحظ فى فكاهاته الأخرى المتعلقة بالنوعيات المتقدمة وسنلحظ أن هذه الفكاهات التى لم نعرض لها بعد تتناول طوائف أقل بروزا فى فكاهات الجاحظ كالفقهاء والأدعياء ، والمتخابثين ، كما يدخل بعضها الآخر فى أبواب : المحاورات الطريفة ، أو الجوابات المفحمة ، أو المفارقات الساخرة ، وبعضها من قبيل التلاعب بالألفاظ .

وإذا نحن أضفنا هذه الألوان من الفكاهات إلى تلك التى تناولناها بالتفصيل فيما سبق اتضح لنا أن الجاحظ قد تناول فى كتاباته معظم ألوان الفكاهات وشتى صنوف المضحكات التى عرفها الأدب العربى (١) .

---

(١) قسم الدكتور أحمد الحوفى الفكاهة – فى دراسته لها – إلى أنواع : الغفلة والتغافل ، التناقض ، اللعب بالألفاظ ، والتهكم بالعيوب الجسدية ، التهكم بالعيوب الخلقية والنفسية ، تهكم الشخص بنفسه ، الحذلقة ، الدعابة ، التخلص الفكه ، ومعظم هذه الأنواع تناولها الجاحظ فى فكاهاته . راجع الفكاهة فى الأدب ج ١ ص ٢٢ وما بعدها .

ومن الفكاهات التي وقعت للجاحظ وتدل على روحه المرحة، وصبغته المفطورة على حب الدعابة، والولوع بالنادرة، وعدم التحرج من روايتها حتى ولو كانت تتعلق به هو شخصيا، وتتناوله بالسخرية – من تلك الفكاهات اخترنا ما يلي :

— ١ —

قال الجاحظ : ما أخجلني أحد إلا امرأتان : رأيت إحداهما في العسكر، وكانت طويلة القامة، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها فقلت لها : انزلي كلي معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا !!

وأما الأخرى فإنها أتتني على باب داري فقالت : لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي . فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي وقالت له : مثل هذا ! وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إلي بفص وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان ! فقلت لها : ياستي ما رأيت الشيطان ؟ ! فأتت بك وقالت ما سمعت !!

— ٢ —

وقال : سألني بعضهم كتابا بالوصية إلى بعض أصحابي فكتبت له رقعة وختمتها، فلما خرج الرجل من عندي فضها فإذا فيها :

« كتابي إليك مع من لا أعرفه ولا أوجب حقه، فإن قضيت حاجته لم أحمدك، وإن رددته لم أذمك ».

فرجع الرجل إليّ فقلت له : كأنك [illegible]ت الورقة ؟ فقال : نعم ! فقلت : لا يضيرك ما فيها فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص . فقال : قطع الله

يديك ورجليك ولعنك ! فقلت : ما هذا فقال : هذا علامة لى إذا أردت أن أشكر شخصا !

— ٣ —

وقال : نزلت على صديق لى فلم آكل عنده لحما ، فعرّضت له فقال : إنى لا أكثر من اللحم منذ سمعت الحديث (إن الله يكره البيت اللَّحِمَ) فقلت : يا أخى ، إنما أراد البيت الذى تؤكل فيه لحوم الناس بالغيبة ! فلم يؤخر حضور اللحم من ذلك اليوم !

ويعلق الأستاذ حسن السندوبى على هذه الطرفة فيقول : « وهذه من معابث الجاحظ وتلاعبه بالكلام حتى يصرفه عن وجهه ، فإن الحديث متواتر على الصحة ، ومهما يكن من شىء فهى من ألطف النكات »[1] .

— ٤ —

وقال الجاحظ : كان يحضر إلى رجل فصيح من العجم . فقلت له : هذه الفصاحة وهذا البيان ، لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لا تنازع فيها ؟ فأجابنى إلى ذلك . فجعلت أحفظه نسبا حتى حفظه وهذه هذاً[2] . فقلت له : الآن لاتته علينا ! فقال : سبحان الله ! إن فعلت ذلك فأنا إذاً دعىّ[3] !!

ومن الطرائف الأخرى التى أشرنا إليها والتى رواها الجاحظ اخترنا الألوان التى نعرضها مصنفة فى النوعيات التالية :

---

(١) أدب الجاحظ للسندوبى . ص ١٦٨ ، وكذا الطرائف الثلاث المتقدمة .
(٢) هذ الحديث هذا : سرده سردا مع الإسراع .
(٣) جـ الأدباء جـ ١٦ ص ٩٤

جوابات مضحكة :

— كان رجل يقود أعمى بكراء ، وكان الأعمى ربما عثر العثرة ، ونكب النكبة ، فيقول : اللهم أبدل لى به قائداً خيراً منه ! قال : فقال القائد : اللهم أبدل لى به أعمى خيراً منه(١) ! !

— وقيل لمزبد : أيسرك أن عندك قنينة شراب . قال : يا ابن أم من يسره دخول النار بالمجاز(٢) ؟ !

— خفف أشعب الصلاة مرة . فقال له بعض أهل المسجد : خففت صلاتك جداً . قال : لأنه لم يخالطها رياء(٣) !

— وقال الأصمعى : قال رجل من أهل المدينة لامرأته : لا جزاك الله خيراً ، فإنك غير مرعية ولا مبقية ! قالت : لأنا والله أرعى وأبقى من التى كانت قبلى! قال : فأنت طالق إن لم أكن كنت آتيها بجرادة فتطبخ منها أربعة ألوان وتشوى جنبيها ! فرفعته إلى القاضى . فجعل القاضى يفكر ويطلب له المخرج . فقال للقاضى : أصلحك الله ! أأشكلت عليك المسألة ؟ هى طالق عشرين(٤) !

— وقال الجاحظ : وقد روينا فى الملح أن رجلا قال لصاحب له : أبوك الذى جهل قدره ، وتعدى طوره ، فشق العصا ، وفارق الجماعة ، لا جرم لقد هزم ثم أسر ثم قتل ثم صلب ! قال صاحبه : دعنى من ذكر هزيمة أبى ومن أسره وقتله وصلبه . أبوك هل حدث نفسه بشىء من هذا قط(٥) ؟ !

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٣٠
(٢) الحيوان ج ٥ ص ١٩٢
(٣) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٣٤
(٤) الحيوان ج ٥ ص ٥٦٧
(٥) الحيوان ج ٢ ص ١٠١

— قيل لزهمان : ما تقول فى خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث[1] !

— مرَّ ابن أبى علقمة بمجلس بنى ناجية فكبا حماره لوجهه ، فضحكوا منه ، فقال : ما يضحككم ؟ رأى وجوه قريش فسجد[2] !

— قدّم رجل من النحويين رجلا إلى السلطان فى دين له عليه ، فقال : أصلح الله الأمير ، لى عليه درهمان ، فقال خصمه : لا والله أيها الأمير إن هى إلا ثلاثة دراهم ، ولكن لظهور الإعراب ترك من حقه درهما[3] !!

— جاء رجل إلى رجل من الوجوه فقال : أنا جارك وقد مات أخى فمر لى بكفن . قال : لا والله ما عندى اليوم شىء ، ولكن تعهّدنا وتعود بعد أيام فسيكون ما تحب ! قال : أصلحك الله ، فنملّحه إلى أن يتيسر عندكم شىء[4] ؟!

غرائب وطرائف :

وكان « كلاّس » و « مقلاس » أخوين ، أحدهما أيمن والآخر أعسر ، فكان الأيمن يفخر على الأعسر ، فأخذا فى سَرَق فقطعت أيديهما ، فكان الأيمن لا يستطيع أن يعتمل بيده ، وكان الأعسر يعمل بيده اليسرى أعماله كلها على صحته وعادته ، ففخر الأعسر على الأيمن بذلك . فقال الأيمن : ما علمت للأيسر فضيلة إلا أن يسرق فيؤخذ فتقطع يمينه[5] !

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٩
(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ٥
(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٨
(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ١١
(٥) البرصان والعرجان للجاحظ ص ٢٥٣

— قال الجاحظ : ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدمين ، والمقدمين فى الخواص: خالد بن صفوان الأهتمى، . . . كان عند أبى العباس أمير المؤمنين، وكان من سمّاره وأهل المنزلة عنده ، ففخر عليه ناس من بلحاث بن كعب[1] ، وأكثروا فى القول ، فقال أبو العباس : لم لا تتكلّم يا خالد ؟ فقال : أخوال أمير المؤمنين وأهله . قال : فأنتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته فقل . قال خالد : وما عسى أن أقول لقوم كانوا بين ناسج برد ، ودابغ جلد ، وسائس قرد ، وراكب عرد[2] . دلّ عليهم هدهد ، وغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة[3] ! ! !

— كان رجل بالبصرة له جارية تسمى « ظمياء » فكان إذا دعاها قال : يا ضمياء بالضاد ، فقال ابن المقفع : قل : يا ظمياء . فناداها : يا ضمياء ، فلما غيّر عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثا قال له : هى جاريتى أو جاريتك[4] ؟ !

تغافل :

— قالوا لأبى الأصبع بن ربعى : أما تسمع بالعدو وما يصنعون فى البحر ؟ فلم لا تخرج إلى قتال العدو ؟

قال : أنا لا أعرفهم ولا يعرفوننى فكيف صاروا لى أعداء[5] ؟ ! !

---

(١) هم من عرب اليمن كما يتضح من سياق القصة .

(٢) العرد — بالفتح — : الحمار .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٣٩

(٤) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١١

(٥) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩

— قال الجاحظ : مرض فتى عندنا ، فقال له عمه : أى شىء تشتهى ؟ قال : رأس كبشين . قال : لا يكون ! قال : فرأسى كبش[١] !

مفارقات :

— قال أبو عمرو المدينى : لو كانت البلايا بالحصص ما نالنى كما نالنى : اختلفت الجارية بالشاة إلى التيّاس اختلافاً كثيراً ، فرجعت الجارية حاملا والشاة حائلا[٢] !!

من طرائف الفقهاء :

— كان رجل فى الجاهلية معه محجن يتنـاول به متاع الحاج سرقة . فإذا قيل له سرقت . قال : لم أسرق وإنما سرق محجنى ! فقال حماد بن سلمة : لو كان هذا اليوم حياً لـكان من أصحاب أبى حنيفة[٣] !

— سئل حفص بن غياث عن فقه أبى حنيفة فقال : أعلم الناس بما لم يكن وأجهل الناس بما كان[٤] !!

وواضح أن المقصود من القصة الأولى التعريض بمذهب أبى حنيفة وأصحابه من حيث كثرة التخريجات والتأوّلات ، أما المقالة الأخرى فتسخر من المغالاة

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤١
(٢) الحيوان ج ٣ ص ٤٦٩
(٣) الحيان ج ٣ ص ١٨
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٣٤٧

فى المسائل الافتراضية التى اشتهر بهما أبو حنيفة ورفاقه واعتدوها مظهراً للتمكن من فهم المسائل والتميز بين المشتبهات منها .

— قال رجل من فقهاء المدينة : من عندنا خرج العلم . فقال ابن شبرمة : نعم ثم لم يكن يرجع إليكم[1] .

— قال الجاحظ : حدثنى أبان بن عثمان قال : قال ابن أبى ليلى : إنى لأساير رجلا من وجوه أهل الشام ، إذ مرّ بحمال معه رمّان ، فتناول رمانة فجعلها فى كمه . فعجبت من ذلك ، ثم رجعت إلى نفسى وكذّبت بصرى ، حتى مرّ بسائل فقير ، فأخرجها فناوله إياها . قال : فعلمت أنى رأيتها ، فقلت له : رأيتك قد فعلت عجباً . قال : وما هو ؟ قلت : رأيتك أخذت رمانة من حمال وأعطيتها سائلا ؟ قال : وإنك ممن يقول هـذا القول ؟ أما علمت أنى أخذتها وكانت سيئة ، وأعطيتها فـكانت عشر حسنات ؟ قال : فقال ابن أبى ليلى : أما علمت أنك أخذتها فـكانت سيئة وأعطيتها فلم تقبل منك[2] ؟ !

متفرقات :

— دخل كردم الذرّاع أرض قوم يذرعها ، فلما انتهى إلى زنقـة[3] لم يحسن يذرعها قال : هذه ليست لـكم ! قالوا : هى لنا ميراث وما ينازعنا فيها إنسان قط . قال : لا والله ما هى لـكم . قالوا : فحصّل لنا حساب

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٣٧

(٢) الحيوان ج ٣ ص ١٧ .

(٣) الزنقة ـ بالتحريك ـ : السكة الضيقة فيها التواء .

ما لا تشك فيه . قال : عشرون فى عشرين مائتان . قالوا : من أجل هذا الحساب صارت الزنقة ليست لنا[1] ؟!

— دخل شاب من بنى هاشم على المنصور ، فسأله عن وفاة أبيه فقال : مرض أبى – رضى الله عنه – يوم كذا ، ومات – رضى الله عنه – يوم كذا ، وترك – رضى الله عنه – من المال كذا ، ومن الولد كذا ، فانتهره الربيع (حاجب المنصور) وقال : بين يدى أمير المؤمنين توالى الدعاء لأبيك ؟ فقال الشاب : لا ألومك ؛ لأنك لم تعرف حلاوة الآباء[2] !!

— قال الجاحظ : حدثنى شمئون الطبيب قال : كنت يوماً عند ذى اليمينين طاهر بن الحسين ، فدخل عليه أبو عبد الله المروزى فقال طاهر : يا أبا عبد الله مذ كم دخلت العراق ؟ قال : منذ عشرين سنة ، وأنا صائم منذ ثلاثين سنة ، قال : يا أبا عبد الله سألناك عن مسألة فأجبتنا عن مسألتين[3] !!

الفكاهات العارية :

وهى التى يتدنى راويها أو كاتبها إلى التصريح بذكر العورات والحديث عنها بأسلوب مكشوف . وهذا اللون قليل فى فكاهات الجاحظ وإن يكن يتطلب أن نخصه بكلمة طالما أننا بصدد بحث فكاهاته عامة .

ومع أن هذه الظاهرة مألوفة فى كتابات الأقدمين ، فإن تورط الجاحظ فيها لم يصل به إلى حد الوقاحة المنبوذة أو الإسفاف المرذول . هذا . إلى أنه

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٤٥

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٨

(٣) الحيوان ج ٣ ص ٧

لم يبد ميلا إلى هذا اللون ، ولم يكن مولعا بروايته ، وإنما كان يسوقه عرضا . ونستطيع أن نقرر أن معظم ما نثره الجاحظ فى كتاباته من تلك النوعية ذو طابع خاص ، بحيث يحس القارىء أنه لم يذكره عبثا ، وإنما ليشير إلى ظاهرة من الظواهر الشاذة ، أو ليصور مسلك واحد من أولئك المنحرفين .

ويمكننا أن نلمح من ثنايا تلك الفكاهات العارية عقلية الجاحظ المتحررة التى تعالج القضايا بموضوعية ، فتراه ينظر إلى الظواهر الشاذة نظرة تأمل ، على الرغم من تحرج بعض الناس منها ، وإظهارهم التقزز عند ذكرها .

ولعل دعاة « الأدب المكشوف » و « الصراحة الجنسية » ـ إن صح هذا التعبير الأخير ـ لم يبلغوا من تحقيق دعاواهم ما بلغه الجاحظ وجعله سلوكا عمليا فى فكاهاته التى من هذا القبيل وتجدر الإشارة إلى أن الجاحظ قد عرض لهذا الموضوع فى كتاب « الحيوان » فقال ـ بعد أن ذكر طائفة من الطوائف العارية ـ :

« وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر الـ .. ، .. ، .. ارتدع وأظهر التقزز ، واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار ، إلا بقدر هذا الشكل من التصنع »[1] .

ثم يقول بعد ذلك بقليل :

« وبعد . فلو لم يكن لهذه الألفاظ[2] مواضع استعملها أهل هذه اللغة وكان الرأى ألا يلفظ بها . لم يكن لأول كونها معنى إلا على وجه الخطأ ، ولكان فى الحزم والصون لهذه اللغة أن ترفع هذه الأسماء منها »[3] .

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٤٠ — (٢) يقصد أسماء العورات .

(٣) المرجع السابق ص ٤٣

وفى اعتقادى أن الجاحظ لا يهدف بهذا الكلام إلى إباحة التصريح بالعورات وتداول الألفاظ الدالة عليها صراحة — لا كناية — فى كلام الناس حولها . وإنما يقصد الرد على الذين عابوا عليه صنيعه بإيراد الطرائف المكشوفة. وهذا — الاعتقاد — منى ليس من قبيل الدفاع عن الجاحظ ، وليس — أيضاً — من فراغ — كما يقولون — وإنما مرجعه إلى أن ثمة تناقضاً ظاهرياً فى موقف الجاحظ من هذه القضية ؛ وذلك لأنه قبل أن يذكر هذا الكلام الذى نقلناه عنه بقليل يصرح — بعد أن روى طوائف عارية — بقوله :

«وقد استخففنا فى هذه الأحاديث ، واستجزنا ذلك بما تقدم من العذر»[1] . وهو يقصد بالعذر المتقدم استنشاط القارىء بالهزل وإخراجه من سياق الجد ، الذى عرضنا له فى فلسفة الفكاهة عنده .

وفى موضع آخر من « الحيوان »[2] تراه يقول :

« وسنذكر لك بابا من السخف ، وما نتسخف به لك ، إذ كان الحق يثقل ولا يخف إلا ببعض الباطل » . ثم يسوق شعراً مكشوفاً لأبى نواس .

وإذاً فالجاحظ يدرك أن رواية هذه الفكاهات العارية سخف وباطل ، بل يصرح بأنه يتكلف ذلك السخف ويعتذر للقارىء منه . فما وجه الصواب فى موقفه ؟

أقول : إن عبارته الأولى يقصد منها الرد على من يعيبون الخوض فى هذه

---

(١) الحيوان ج ٣ ص ٣٨

(٢) المرجع السابق ج ٥ ص ١٧٨

الأحاديث على الإطلاق ويبالغون فى إظهار التأذى بها ، وهو فى ذات الوقت يدرك أن تداول هذه الروايات وإثباتها فى الكتب تسخّف ومجانبة للأمثل .

وينبغى أن نشير هنا إلى أن هذه القضية تختلف فى ملابساتها بالنسبة للقدماء عنها بالإضافة للمحدثين . فقد كانت هذه الطرائف العارية تقرأ وتسمع فى نطاق ضيق ، وعلى مستوى محدود ، بين طائفة من الشيوخ ، ولم تكن الكتب تطبع وتتداول بمثل ما أصبح شائعاً فى العصور الحديثة ، وأيضاً لم يكن للعنصر النسائى تواجد واسع النطاق فى الحياة الثقافية ومن ثم فلم يكن هنا تحرج أو تخوف من رواية تلك الطرائف أو تسطيرها فى الكتب .

وأكتفى هنا أن أشير إلى واحدة من طرائف الجاحظ التى تقترب من هذا اللون والتى فيها شىء من الإسفاف وذلك لأنى أشرت إليها فى ثنايا حديثى عن طرائف الوعاظ والقصاص ووعدت بأن أذكرها فى موضعها ، وهى نادرة تتعلق بأبى كعب القاص الذى سخر الجاحظ منه ومن أمثاله ومن هم على شاكلته من الأدعياء الجهال .

وخلاصة[1] هذه النادرة أن أبا كعب هذا تناول نوعا من البقول وأكثر منه فاعتراه انتفاخ وقرقرة ، وكان على موعد ليلتقى بالناس فى المسجد ويقص عليهم ، فانبرى بعد الصلاة وتوجه ناحية المحراب والإمام جالس فى ناحية قريباً منه ، وأخذ أبو كعب فى قصصه ، وكان كلما هاجت أعاصير بطنه تصنّع للتخلص منها — وبعضها ذو صوت يسمع — فكان يتجه لسامعيه قائلا لهم : « قولوا لا إله إلا الله وارفعوا بها أصواتكم » وذلك ليتسنى له فى خلاله ذلك أن يتخلص من بلاياه . . . !!

---

(١) نصها فى الحيوان ج ٣ ص ٢٤

وقد صُغت الطرفة بعبارة من عندى تحاشيا لذكر الألفاظ السمجة التى حكاها الجاحظ بها .

ومضمون هذه الطرفة إن يكن صحيحاً فهو شاهد على سفولة هذا النمط من القصاص واستهانته بحرمة بيوت الله ، والإساءة البالغة للعلماء وهو بهذا أهل لأن تتناوشه الأقلام الساخرة وتتداول خرافاته الألسن .

وإن تكن القصة من اختراع الجاحظ فهى أدخل فى العجب وأدعى إلى الدهشة ، لما فيها من خيال محلق وتصوير دقيق ، ثم إنها – إن تكن كذلك – لتدل على تفنن الجاحظ فى إبداع الصور الساخرة التى يصنعها للتهكم من الأنماط البشرية المنحطة سلوكا وخلقا .

الفصل الرابع

الخصائص الفنية لأدب الفكاهة عند الجاحظ

امتلك أبو عثمان الجاحظ - كما هو معروف - ناصية البيان ، وتربع على عرش البلاغة وهو صاحب طريقة فى الكتابة عرف بها ، وصارت علماً عليه ، وأخص خصائص الأسلوب الجاحظى تتمثل فى توخى السهولة ، وإيثار الجملة الواضحة ، مع عناية برشاقة الأسلوب ، وهندسة العبارة ، والبراعة فى إحكام البِنْيَة الأسلوبية بحيث توفى المعانى حقها ولا تتحيفها ، مع طلاقة فى التعبير وغزارة فى الثروة اللغوية .

ولا يعنينا فى هذا الفصل أن نكرر القول حول أسلوب الجاحظ وميزات نثره الفنى ، فقد تناول الباحثون هذا الجانب وأفاضوا فى شرحه ، والتنويه بمزاياه - وإنما يهمنا فى هذا المقام أن نقف على جملة الخواص الفنية التى تميزت بها كتابات الجاحظ الفكاهية ، وسنرى أنها فضلا عن احتوائها على الميزات العامة المعروفة لأسلوب الجاحظ ، قد اكتسبت ميزات خاصة تتصل بطبيعة الفكاهة ، كما أنها تنطوى فى معظم الأحيان على التعريض أو السخرية أو التهكم مما يجعل لها طابعا متميزا .

ونعرض فى هذا الفصل أبرز الخواص الفنية لفكاهات الجاحظ والتى تتلخص فى الجوانب التالية :

(أ) براعة الوصف ودقة التصوير .

(ب) السخرية .

(ج) واقعية اللغة .

(د) الأقصوصة الفكاهية .

* * *

أولا : براعة الوصف ودقة التصوير

تميز الأدب الفكاهي عند الجاحظ بأنه أدب وصفي، يعنى بالحكاية والسرد، ويرسم للقارىء في معظم الأحيان دقائق القصة التي يحكيها، ويعرض عليه تفاصيلها حتى يكاد يلمسها القارىء وكأنها ماثلة أمام عينيه، وهذه الميزة شائعة في كتابات الجاحظ الوصفية عامة وسببها ما وُهِبَهُ من قوة الذكاء، ودقة الملاحظة، والقدرة على التعبير والتصوير بصورة تفوق الوصف.

والتصوير في أدب الجاحظ الفكاهي يتنوع إلى ألوان شتى وفنون عديدة، منه تصوير الأشكال والمشاهد مع التركيز على إبراز عناصر المشهد المصور وزواياه المختلفة، ومنه تصوير الحركة، ومنه تصوير الطباع، ويبرع الجاحظ أكثر وأكثر في تجسيم العيوب، وتصوير الرذائل على نحو ما هو معروف في فن « الكاريكاتير » وقد تتداخل هذه الألوان في لوحة واحدة فترى فيها تصويراً للمشهد، وتعبيراً عن الحركة، ووصفاً للطباع، وتجسيماً للعيوب، بحيث تجد نفسك أمام حشد عظيم من الأفانين والصور التي لا ينقضي عجبك منها. وربما تحوجك إذا أردت أن تحلل عناصرها، وتتفرس بناءها الفني إلى شرح طويل وكلام كثير.

وأداة الوصف عند الجاحظ هي العبارة الواضحة، وعماده في دقة التصوير هو تلك الثروة اللغوية والمقدرة التعبيرية اللتان أكسبتا كتاباته حيوية وخصبا وبعثتا في صوره وأقاصيصه جواً من الواقعية التي تشعر القارىء بأنه يعايش الأحداث ويتابعها وكأنها تتم تحت سمعه وبصره وفي متناول حسه وليست من قبيل الوصف المتخيَّل والروايات المحكية.

ولا ريب أن العبارة اللغوية هي أداة الأديب التي عن طريقها يصور ويصف نهي بالإضافة إليه تشبه المادة الغفل التي يعتمد عليها الصانع الماهر في إبراز قدراته في حذق مايصنع ، وهذه المادة (الخام) متاحة الأدباء على السواء وإنما يتفاضلون في إدراكهم لمدلولاتها ، وحذقهم بصياغتها على النحو الذي تؤدي به المعنى أكمل أداء ، وتبين عنه أحسن بيان .

والحق أن الجاحظ يبدو كأعظم ما يكون حذقا ومهارة في تطويع العبارة لمعانيه وصوره في أدبه الفكاهي الحافل بالوصف البارع والتصوير الكاشف .

ولنتأمل هذه الصورة الدقيقة التي تصور المشهد بكل جوانبه والتي رسمها الجاحظ لشيخ من أهل خراسان من جملة البخلاء نختار منها المشهد التالي :

قال الجاحظ مصوراً سلوك ذلك الشيخ وطريقته في البخل :

« كان لا يأكل إلا ما لابد منه ، ولا يشرب إلا ما لابد منه . غير أنه إذا كان في غداة[1] كل جمعة حمل معه منديلا فيه جرذقتان ، وقطع لحم سكباج[2] مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات ، وصرّة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان[3] وأربع بيضات ليس منها بدّ ، ومعه خلال . ومعه وحده ، حتى يدخل بعض بساتين الكرخ وينظر موضعا تحت شجرة وسط خضرة وعلى ماء جار ، فإذا وجد ذلك جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرة ومن هذا مرة . فإن وجد قيم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا ، أو أعطني

(١) أول النهار .

(٢) السكباج : مرق يعمل من اللحم والخل . ولعله يقصد هنا أن اللحم تم إنضاجه بهذه الطريقة .

(٣) الأشنان : نبات تغسل به الثياب والأيدي .

بهذا رطبا – إن كان فى زمان الرطب، أو عنبا إن كان فى زمان العنب – ... فإن أتاه به أكل كل شىء معه، وكل شىء أتى به، ثم تخلل وغسل يديه، ثم تمشى مقدار مائة خطوة ثم يضع جنبه فينام إلى وقت الجمعة. ثم ينتبه فيغتسل، ويمضى إلى المسجد. هذا كان دأبه كل جمعة [١].

وهكذا نلمح فى وصف الجاحظ سلاسة العبارة ووضوحها ودقة الوصف وشموله حتى لم يكد يترك من عناصر المشهد شيئاً ذا بال فى توضيح الصورة إلا ألمح إليه ونبه عليه.

ومن هذا الباب أيضا وصف الجاحظ لليلى الناعطية تلك المرأة الشحيحة التى كانت ما تزال ترقع قميصاً لها – على حد تعبير الجاحظ – وتلبسه حتى صار القميص الرقاع، وذهب القميص الأول، ورفت كساءها ولبسته حتى صارت لا تلبس إلا الرفو وذهب جميع الكساء [٢].

ومما يدخل فى باب تصوير الحركة هذه القصة التى حكاها الجاحظ عن « أبى مازن » و « جبل العمى » قال:

وكان « جبل » خرج ليلا من موضع كان فيه فخاف الطائف [٣]، ولم يأمن المستقفى [٤] فقال: لو دققت الباب على أبى مازن، فبت عنده فى أدنى بيت أو فى دهليزه، ولم ألزمه من مؤنتى شيئاً، حتى إذا انصدع عمود الصبح خرجت فى أوائل المدلجين [٥].

---

(١) البخلاء ص ٢٤ – ٢٥. (٢) البخلاء ص ٣٧.
(٣) الطائف: الذى يطوف ليلا للحراسة.
(٤) المستقفى: الذى يتبع السائر ليلا ليسلبه. (٥) المدلج: السائر فى أواخر الليل.

فدق عليه البـاب دق واثق ودق مدلّ . . . فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية ، فنزل سريعا . فلما فتح الباب وبصر بجبل ، بصر بملك الموت ، فلما رآه جبل واجما لا يحير كلمة ، قال له : إنى خفت معرة الطائف وعجلة المستقى فلت إليك لأبيت عندك ، فتساكر أبو مازن ، وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السكر ، فخلع جوارحه وخبل لسانه ، وقال : سكران والله . أنا والله سكران . قال له جبل : كن كيف شئت . نحن فى أيام الفصل لا شتاء ولا صيف، ولست أحتاج إلى سطح فأغم عيالك ، ولست أحتاج إلى لحاف فأكلفك أن تؤثرنى بالدثار . . وإنما أريد أن تدعنى أغفى فى دهليزك إغفاءة واحدة ، ثم أقوم فى أوائل المبكرين . قال أبو مازن ـ وأرخى عينيه وفكيه ولسانه ثم قال ـ : سكران والله أنا سكران، لاوالله ما أعقل أين أنا ، والله إن[1] أفهم ماتقول . ثم أغلق الباب فى وجهه ودخل لا يشك أن عذره قد وضح ، وأنه قد ألطف النظر حتى وقع على هذه الحيلة[2] .

ولعلنا نلاحظ دقة تصوير المشهد بجملته ، كما نلاحظ تصوير الحركة فى وصف تساكر أبى مازن إذ يوضح الجاحظ ذلك بقوله : فخلع جوارحه وخبل لسانه ، ثم يقول مرة أخرى : وأرخى عينيه وفكيه ولسانه ـ وهى صورة دقيقة لمن يلم به السكر .

ومن دلائل الدقة فى الوصف وشموله هذه الصورة التى رسمها الجاحظ لأهل مرو قال :

« وزعموا أنهم ربما ترافقوا وتزاملوا ، فتناهدوا[3] وتلازموا فى شراء

---

(١) إن فى هذا السياق نافية . (٢) البخلاء ص ٣٩ .
(٣) تناهدوا : ترافقوا .

اللحم ، فإذا اشتروا اللحم قسموه قبل الطبخ ، وأخذ كل إنسان منهم نصيبه فشكه بخوصة أو بخيط ، ثم أرسله فى خل القدر والتوابل فإذا طبخوه تناول كل إنسان خيطه وقد علمه بعلامة ، ثم اقتسموا المرق ، ثم لا يزال أحدهم يسل من الخيط القطعة بعد القطعة . حتى يبقى الحبل لاشىء فيه ، ثم يجمعون خيوطهم . فإن أعادوا الملازقة أعادوا تلك الخيوط ، لأنها قد تشربت الدسم فقد رويت . وليس تناهدهم من طريق الرغبة فى المشاركة ، ولكن لأن بضعة كل واحد منهم لا تبلغ مقدار الذى يحتمل أن يطبخ وحده ، ولأن المؤنة تخف أيضا والحطب والخل والثوم والتوابل . ولأن القدر الواحد أمكن من أن يقدر كل واحد منهم على قدر ، وإنما يختارون السكباج لأنها تبقى على الأيام وأبعد من الفساد(١) .

وفى تصوير المثالب ووصف العيوب تطالعنا فكاهات الجاحظ وطرائفه أمثلة كثيرة تدل على براعة أبى عثمان فى رسم صورة ساخرة تجسم العيوب وتبرز النقائص . وهذه صورة واحد من الطفيليين قذرى المؤاكلة وهو على الأسوارى تضع بين أيدينا شريطا مصوراً عن جشعه ونهمه ، يحكى الجاحظ على لسان الحارثى — أحد البخلاء — يقول فى ذم على الأسوارى « وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقا(٢) فبلع ضروسه وهو لا يعلم .. وكان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر وانبهر ، وتربد وجهه ، وعصب(٣) ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه وما يعترى الطعام منه ، صرت لا آذن له

(١) البخلاء ص ٢٣

(٢) تعرقا : أى استئصالا للحم من فوق العظم .

(٣) جحظت عينه : عظمت مقلتها ونتأت ، وسدر : تحير واضطرب ، وانبهر : تتابع نفسه ، وعصب : أى جف الريق بفيه من شدة الجهد .

إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلى[١] ولم يفجأنى قط وأنا آكل تمرا إلا استفه سفا، وحساه حسوا، وزدا به زدوا. ولا وجده كنيزا إلا تفاول القصعة كجمجمة الثور، ثم يأخذ بحضنيها، ويقلها من الأرض. ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا حتى يأتى عليها جميعا، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث. ولم يفصل تمرة قط عن تمرة. وكان صاحب جمل (بضم الجيم وفتح الميم) ولم يكن يرضى بالتفاريق. ولا رمى بنواة قط، ولا نزع قمعا، ولا نفى عنه قشرا. ولا فتشه مخافة السوس والدود ثم ما رأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر، وشحشحان صاحب طائلة[٢]، وكأنه عاشق مغتلم، أو جائع مقرور.

فانظر إلى وصف الجاحظ لذلك الرجل وكيف توصل إلى تجلية ملامحه بالتصوير الدقيق لحاله ساعة يجلس إلى الطعام فيذهب عقله وتجحظ عينه ويسكر ويبهو ... إلخ، ثم صورته وهو يقل القطعة من التمر كأنها «جمجمة الثور» ولنلحظ تلك العبارات ذات الإيحاء القوى فى هذا المقام مثل قوله: «جمجمة الثور» و «استفه سفا» «حساه حسوا» «ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا».

وأخيرا تصويره فى حرصه وتهافته على الطعام كأن له عنده ثأراً يطالبه به أو كأنه عاشق لا صبر له عن معشوقته، أو جائع محروم طال عهده برؤية الطعام، وتقلب دهراً طويلا فى جنبات الحرمان.

وصورة أخرى من تلك الصور المعبرة التى رسمها الجاحظ لواحد من الطفيليين وهو قاسم التمار نطلع منها على دقة التصوير. وعذوبة الوصف. قال: «وكان

---

(١) الباقلى: الفول.

(٢) الشحشحان: الغيور الشجاع، والطائلة: الثأر.

قاسم شديد الأكل، شديد الخبط، قذر المؤاكلة، وكان أسخى الناس على طعام غيره، وأبخل الناس على طعام نفسه. وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط. فكان لا يرضى بسوء أدبه على طعام تمامة حتى يجر معه ابنه إبراهيم. وكان بينه وبين ابنه إبراهيم فى القذر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين. فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد - على أيمانهما وشمائلهما - حظ فى الطيبات »(١).

وعندما يأخذ الجاحظ فى وصف الطعام تراه يعرض عليك صوراً دقيقة لما يعتمل فى نفوس الشخصيات التى يصورها، فيجعلك تلاحظهم فى خطراتهم وهواجسهم، وأمانيهم، وإن كانوا هم فى ظاهر الأمر يبدون خلاف ما يبطنون، ويجتهدون فى إخفاء دخائلهم ومشاعرهم لأنها تفضحهم إن هم أعلنوها، وتجر عليهم الهزء والسخرية لتصادمها مع أعراف الجماعة، وما تواضعت عليه من مثل وقيم.

هذا « تمام بن جعفر » علم من أعلام البخلاء ونمط طريف من الشخصيات التى صورها الجاحظ تصويراً دقيقاً، فهو نموذج للبخيل الحذر، الذى يخشى على طعامه عدوان النهمين، ويفرق من تعرضه لجشع الآكلين، فتراه يتوجس من الجميع خوفا، ويتشكك فى نواياهم وفى مسلكهم وطباعهم وعلى الأخص فيما يتعلق بالطعام، وجميعهم عنده نهمون جشعون، وكلهم لديه مبطلون مخطئون على أى نحو كانوا وبأية صورة بدوا.

يقول أبو عثمان الجاحظ فى تصويره لشخصية « تمام »:

« كان تمام بن جعفر بخيلا على الطعام، مفرط البخل. وكان يقبل على كل

(١) البخلاء ص ١٩٨ .

من أكل خبزه بكل علة ، ويطالبه بكل طائلة ، وحتى ربما استخرج عليه أنه كان حلال الدم . وكان إن قال له نديم : ما فى الأرض أحد أمشى منى ، ولا على ظهرها أحد أقوى على الحضر[1] منى . قال : وما يمنعك من ذلك وأنت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل إلا البطن ؟ لا حمد الله من يحمدك .

فإن قال : لا والله إن أقدر أن أمشى لأنى أضعف الخلق عنه . وإنى لأنبهر من مشى ثلاثين خطوة . قال : وكيف تمشى وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمّالا ؟ وهل ينطلق الناس إلا مع خفة الأكل ؟ وأى بطين يقدر على الحركة ؟ وإن الكظيظ ليعجز عن الركوع والسجود فكيف بالمشى الكثير ؟ . فإن شكا ضرسه وقال : ما نمت البارحة مع وجعه وضرباته . قال : عجبت كيف اشتكيت واحداً ولم تشتك الجميع ؟ وكيف بقيت إلى اليوم فى فيك حاكّة[2] ؟ وأىّ ضرس يقوى على الضرس والطحن ؟ والله إن الأرحاء السورية لتكلّ ، وإن المنحاز[3] الغليظ ليتعبه الدق . ولقد استبطأت لك هذه العلة . إرفق فإن الرفق يمن ، ولا تخرق بنفسك فإن الخرق شؤم . وإن قال : لا والله إن اشتكيت ضرساً لى قط ولا تحاحل لى سنّ عن موضعه منذ عرفت نفسى قال : يا مجنون لأن كثرة المضغ تشد العمور وتقوى الأسنان وتدبغ اللثة وتغذو أصولها ، وإعفاء الأضراس من المضغ

---

(١) الحضر : العدو والجرى .

(٢) الحاكة : السن ، وجمعها حواك .

(٣) المنحاز : الهاون .

يريخها[١]، وإنما الفم جزء من الإنسان ، وكما أن الإنسان نفسه إذا تحرك وعمل قوى ، وإذا طال سكونه تفتخ واسترخى فكذلك الأضراس . ولكن رفقاً فإن الإتعاب ينقض القوة ، ولكل شيء مقدار ونهاية . فهذا ضرسك لا تشتكيه ، بطنك أيضاً لا تشتكيه ؟

فإن قال : والله إن أروى من الماء ، وما أظن أن فى الدنيا أحداً أشرب منى للماء . قال : لا بد للتراب من ماء ، ولا بد للطين من ماء يبلله ويرويه أوليست الحاجة على قدر كثرته وقلته . والله لو شربت ماء الفرات ما استكثرته لك ، مع ما أرى من شدة أكلك وعظم لقمك .

فإن قال : ما شربت اليوم ماء البتة ، وما شربت أمس بمقدار نصف رطل وما فى الأرض إنسان أقل منى شرباً للماء . قال : لأنك لا تدع لشرب الماء موضعاً ، ولأنك تكنز فى جوفك كنزاً لا يجد الماء معه مدخلا . .

فإن قال : ما أنام الليل كله وقد أهلكنى الأرق . قال : وتدعك الكظة والنفخة والقرقرة أن تنام ؟ . .

فإن قال : ما هو إلا أن أضع رأسى فإنما أنا حجر ملقى إلى الصبح . قال : ذلك لأن الطعام يسكر ويخدِّر ويختر ويبل الدماغ ويبل العروق ، ويسترخى عليه جميع البدن ، ولو كان فى الحق لكان ينبغى أن تنام الليل والنهار[٢] . .

---

(١) يريخها : يوهنها ويضعفها .

(٢) البخلاء ص ١١٦ وما بعدها .

وهكذا يأخذنا الجاحظ بأسلوبه المعهود فى الاحتجاج للشىء وضده إلى تمثل شخصية تمام بن جعفر بأدق تفاصيلها . فهو رجل – كما رأينا – كل همه الطعام والشراب ، وكل ما يعرض للرجل من أصحابه وعارفيه من قوة أو ضعف ، ومن سلامة أو مرض ، ومن نوم أو أرق ينبعث فى تفكير « تمام » من الطعام ، ويرتبط دائماً بالطعام .

ومن النوادر الطريفة التى حكاها الجاحظ عن « تمام » أيضاً تلك الطرفة ، قال[١] :

« وشرب مرة النبيذ ، وغنّاه المغنى فشق قميصه من الطرب . فقال لمولى له يقال له « المحلول » وهو إلى جنبه : « شق أنت أيضاً – ويلك – قميصك » . قال : « لا والله لا أشقه ، وليس لى غيره » . قال : « فشقه وأنا أكسوك غداً » . قال : « فأنا أشقه غداً » . قال : « أنا ما أصنع بشقك له غدا ؟ » . قال : « وأنا ما أرجو من شقه الساعة ؟ » .

قال الجاحظ : فلم أسمع بإنسان قط يقايس ويناظر فى الوقت الذى إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب غيره وغير مولاه محلول .

* * *

(١) المرجع السابق ص ١١٩ .

ثانيا : السخرية والتهكم

وهما طابع معظم فكاهات الجاحظ ، والسمة المشتركة فى دعاباته الهادفة وتلميحاته الدالة .

والسخرية والتهكم من الأدوات المهمة فى التأثير على القارىء وجذب انتباهه ، وهما مظهر لعقلية الكاتب وذكائه ومعيار لبعد نظره ، هذا فضلا عن أن السخرية والتهكم تشيعان فى الأثر الأدبى حيوية وقوة بحسبانهما علامة على التفاعل إيجاباً وسلباً مع الظواهر المختلفة التى لها تأثير فى حياة الناس .

وتتفوق السخرية والتهكم فى مجال الإصلاح والانتقاد على اللوم الصريح والتعنيف المعلن ، لأن السخرية تبعث ومضات خاطفة على الظاهرة التى يراد ذمها ، ولا تعريها كل التعرية وكذلك التهكم . ومن ثم يختلف وقعهما عن وقع النقد الصريح الذى قد يبلغ فى بعض الأحيان درجة التجريح أو الهجاء المرذول .

وتتنوع السخرية تبعاً لشخصية الكاتب وعقليته فقد تكون قريبة من التصريح ، موغلة فى التجريح ، وقد تسمو فتخفى مسارها ، وتتوارى سهامها ، وتكون مع ذلك شديدة الوقع ، مؤلمة اللذع عند من يدرك مغزاها ويبصر مرماها .

ولقد كانت سخرية الجاحظ من هذا النوع الأخير الذى يكاد يخفى إلا على البصراء به ، ويلتوى على من لا يفهمونه ، فهى سخرية تقصد إلى « الأذواق المترفة والمدارك المرهفة ، حتى لقد يرى بعض القراء هذه الصورة أو تلك – من

صور الجاحظ الساخرة فلا يكاد يتنبه إلى مواطن السخرية فيها ، إذ كانت سخرية الذهن الدقيق والذوق الرفيع المهذب ، والفن الخالص المتمكن »[١] .

ولعل مما أكسب سخريات الجاحظ وتهكمه تلك الخاصية أنه لم يهدف بهذه ولا تلك إلى الغدر والتشفي ، ولم يستخدمهما وسيلة لإطفاء الحقد أو سلاحاً للانتقام ، وذلك بأنه رجل فطر على حب الناس والحياة ، فهو إذا سخر أو تهكم كان مبعث ذلك فى نفسه هو شعوره بالإشفاق على من يتهكم بهم أو يسخر منهم إن كانوا أهلا للارتداع عما هم فيه ، أو يكون قصده تحذير الآخرين من طباعهم وأخلاقهم وسلوكهم إن كان داؤهم داء عضالا .

ومن دلائل ذلك أننا نرى الجاحظ يتعاطف فى أحيان كثيرة مع بخلائه ويرثى لهم لتيقنه بأن بخل الكثيرين منهم شىء فى أصل طبعهم لا يسهل عليهم الخلاص منه ، فتجده يقول عن أبى محمد الحزامى أحد بخلائه : « كان أبخل من برأ الله ، وأطيب من برأ »[٢] ، وهذه عبارة يشتم منها الرثاء للحزامى ، فمع اتصافه بالبخل وبلوغه فى ذلك الحد لم يمتنع الجاحظ من وصفه بأنه كان أطيب من خلق الله .

ويقول عن أبى عبد الله المروزى : « وأبو عبد الله هذا كان من أطيب الخلق وأملحهم بخلا وأشدهم رياء »[٣] .

وتتقابل فى فكاهات الجاحظ الأساليب الساخرة من شخصيات متعددة

---

(١) مقدمة البخلاء للدكتور طه الحاجرى ص ٥٦
(٢) البخلاء ص ٥٩
(٣) نفس المرجع ص ٢١

وعلى ألسنة شتى ، فأحياناً يصطنعها الجاحظ فى محاوراته الفكهة ، ومعابثاته المرحة ، وأحياناً يجريها على ألسنة من يصورهم ويحكى محاوراتهم .

والطريف أن الجاحظ ـ إمعاناً منه فى حيوية الحوار وجدته ـ ربما عمد إلى إنطاق الأشخاص الذين هم أساساً مناط السخرية وموضع التهكم ـ ربما أنطقهم بالأقوال الساخرة التى تنطوى على تسفيه آراء العائبين لهم والزارين عليهم .

من أمثلة ذلك ما حكاه عن سهل بن هارون فى رده على العائبين له ودفاعه عن مسلكه فى الختم على الأطعمة الثمينة والفاكهة النفيسة حتى لا يعبث بها عبد نهم أو صبى جشع أو أمة لكعاء أو زوجة خرقاء .. الخ .

تراه يقول :

« من شاء أطعم كلبه الدجاج المسمّن ، وأعلف حمـــاره السمسم المقشّر »(١) .

وهى عبارة تقطر تهكما وسخرية من عائبى سهل بن هارون الذين لا يرون رأيه ، ولا ينهجون ـ فى الختم على النفائس ـ نهجه .

ومثال آخر نسوقه على السخرية التى تجرى على ألسنة الأشحاء وأهل الحرص ، وهو من جملة دفاع « الحارثى » عن حرصه وضنه بطعامه على المتأكلين أهل النهم والجشع الذين لا هم لهم إلا أن يملأوا بطونهم من موائد غيرهم ، ثم لا يكون منهم شكر ولا محمدة ...

(١) البخلاء ص ١١ .

يقول الحارثي :

« وكم قد رأينا من الأعراب من نزل برب صرمة(٢) ، فأتاه بلبن وتمر وحيس وخبز وسمن سلاء ، فبات ليلته ثم أصبح يهجوه : كيف لم ينحر له — وهو لا يعرفه — بعيراً من ذوده أو من صرمته ؟ ولو نحر هذا البائس لكل كلب مر به بعيراً من مخافة لسانه ، لما دار الأسبوع إلا وهو يتعرض للسابلة يتكفف الناس ويسألهم العلق(١) .

ولا يخفى ما في قوله : ولو نحر هذا البائس لكل كلب مر به . . . إلخ » من سخرية لاذعة ، تنطوي على تسفيه زعم أولئك الطامعين ، وتجهيل من يطاوعونهم ، مخافة التشنيع عليهم أو التشهير بهم .

أما الصور الساخرة التي يعرضها علينا الجاحظ فهي أمتع ما في فكاهاته وأحفلها بضروب التلميح والتعريض والغمز والتسفيه وفي ثنايا ذلك كله تستبين لنا طاقات الجاحظ التعبيرية التي تمكنه من اصطناع كل تلك الفنون في الصورة الواحدة فتأتي ممتعة للقارىء والسامع ، بعبارتها المؤثرة وسياقها المشوق.

وهذه إحدى صوره الساخرة التي تطالعنا في كتاب البخلاء .

يقول الجاحظ :

كان « أبو الهذيل » أهدى إلى « مويس » دجاجة . وكانت دجاجته التي

---

(١) الصرمة من الإبل : ما بين العشرة إلى الأربعين .

(٢) العلق ، جمع علقة : ما يتبلغ به من العيش والخبر في البخلاء ص ٧٣

أهداها دون ما كان يتخذ لمويس ، ولكنه بكرمه وبحسن خلقه أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها ، وكان يعرفه بالإمساك الشديد . فقال : وكيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة ؟ قال : كانت عجباً من العجب فيقول : وتدرى ما جنسها ؟ وتدرى ما سنها ؟ .. وتدرى بأى شىء كنا نسمنها ، وفى أى مكان كنا نعلفها ؟ فلا يزال فى هذا ، والآخر يضحك ضحكا نعرفه نحن ، ولا يعرفه أبو الهذيل .

وكان أبو الهذيل أسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خلقاً ، وأسهلهم سهولة ، فإن ذكروا دجاجة قال : أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة ؟ فإن ذكروا بطة أوعناقا أو جزوراً أو بقرة قال : فأين كانت هذه الجزور فى الجزر من تلك الدجاجة فى الدجاج ؟ وإن استسمن أبو الهذيل شيئا من الطير والبهائم قال: لا والله ولا تلك الدجاجة . وإن ذكروا عذوبة الشحم قال : عذوبة الشحم فى البقر والبط وبطون السمك والدجاج ولاسيما ذلك الجنس من الدجاج ، وإن ذكروا ميلاد شىء أو قدوم إنسان قال : كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة ، وما كان بين قدوم فلان وبين الهبة بتلك الدجاجة إلا يوم . وكانت مثلا فى كل شىء ، وتاريخا لكل شىء[1] .

والسخرية — كما نرى فى القصة — مصحوبة بالتصوير الدقيق لطبع أبى الهذيل وإمساكه الشديد ، وذلك لأن البخيل إذا اضطرته الصلات الاجتماعية إلى أن يعطى واحداً من إخوانه شيئا من ماله — ولو كان هينا — فإن نفسه تظل متعلقة بذلك الذى منحته يده ، ولما كان لا سبيل له إلى استعادة ما أهداه فإن

(١) البخلاء ص ١٣٥

نوازع الحرص فى نفسه تتلذذ بذكر ما أعطت تماما كما حدث هنا من أبى الهذيل وترديده لذكر الدجاجة ، وذلك لأمرين :

أولهما : إرضاء نفسه الشحيحة وإشعارها بأن الدجاجة لم تضع هباء وإنما أصبحت ذات منافع شتى وفوائد متعددة .

والآخر : إرضاء غروره الشخصى بإقناع نفسه أنه سخى معطاء .

التربيع والتدوير :

وهى رسالة من رسائل الجاحظ التى جعلها معرضا للسخرية والتهكم وأبدع فيها أرق ما عرفه الأدب العربى فى ذلك العهد من أساليب السخرية والتعريض. وهنا أنسب موضع للحديث عنها وإعطاء القارئ فكرة عن مضمونها .

يدور موضوع الرسالة حول شخصية « أحمد بن عبد الوهاب » الذى كان يعمل كاتبا فى عهد الخليفة العباسى « الواثق » ، وكان ذلك الكاتب دعيا من الأدعياء فجعله الجاحظ بهذه الرسالة عبرة للمعتبرين ، وخلد صورته الممسوخة على مر السنين .

والحق أن رسالة « التربيع والتدوير »[١] لا يقتصر دورها على السخرية

---

(١) يرجح الأستاذ فوزى عطوى أحد من حقق هذه الرسالة أن التسمية فيها ليست من عمل الجاحظ وإنما من عمل الناسخين ويستدل على ذلك بأن الجاحظ لم يذكرها بهذا الاسم بل اكتفى فى الجزء الأول من كتاب الحيوان بأن أحال من لا يفهم بعض محتويات سفره الضخم على الرسالة التى كتبها إلى أحمد بن عبد الوهاب . ارجع التربيع والتدوير تحقيق عطوى ص ٦

بواحد من الأدعياء ، وإنما تتجاوز ذلك إلى اشتمالها على العديد من الفوائد العلمية والأدبية التى حشدها الجاحظ فى ثنايا عبثه بابن عبد الوهاب كما هو شأنه فى معظم كتاباته ، بحيث أصبحت الرسالة بالنظر لهذه الفوائد أشبه ما تكون بدائرة معارف على حد تعبير البارون « كرادى فو »[١] .

وسأقصر حديثى هنا على جانب السخرية فى الرسالة ، وهو يدور فى حلقات ثلاث :

الأولى : التهكم بالعيوب الجسدية فى أحمد بن عبد الوهاب وتجسيم تلك العيوب والمبالغة فيها على طريقة الجاحظ المعهودة التجسيم المضحك « الكاريكاتير » يقول عنه فى بداية الرسالة[٢] :

« كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ، ويدعى أنه مفرط الطول . وكان مربعا ، وتحسبه لسعة جفرته[٣] واستفاضة خاصرته مدوراً . وكان جعد الأطراف[٤] قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدعى البساطة والرشاقة وأنه عتيق الوجه ، أخمص[٥] البطن ، معتدل القامة ، تام العظم .

وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه

(١) نقلا عن كتاب أدب المعتزلة للدكتور عبد الحكيم بلبع ص ٢٨٠

(٢) التربيع والتدوير ص ٩ تحقيق فوزى عطوى .

(٣) الجفرة ــ بضم الجيم ــ : جوف الصدر أو ما يجمع الصدر والجنبين .

(٤) جعد الأطراف : قصيرها .

(٥) ضامر .

طويل الباد[1] رفيع العماد ، عادى القامة ، عظيم الهامة قد أعطى البسطة فى الجسم والسعة فى العلم .

ويخاطبه فى موضع آخر هازئا به متهكما بشكله الذى صوره فيقول[2] :

« . . وفيك أمران غريبان ، وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور النقصان والزيادة إياك ، فجوهرك فلكى وتركيبك أرضى ، ففيك طول البقاء ، ومعك دليل الفناء . . » .

ويعاود الجاحظ العبث بابن عبد الوهاب ، فيقول له بعد تصوير الذى افتتح به الرسالة :

« . . وبعد . . فأنت أبقاك الله ، فى يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حد لا يفل ، وغرب لا ينثنى ، وهو قياسك الذى إليه تنسب ومذهبك الذى إليه تذهب أن تقول : « وما علىّ أن يرانى الناس عريضاً وأكون فى حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق ، وقد علموا أبقاك الله أن لك مع طول الباد راكباً ، طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف ، وعليك ، إذا اضطجعت مسائل »[3] .

وفى هذا الجانب الذى يتناول السخرية من شكل أحمد بن عبد الوهاب

---

(١) الباد : باطن الفخذ ، وما يلى السرج من فخذ الفارس .

(٢) ص ٣٧

(٣) الرسالة ص ١٨

وتكوينه الجسمي تبدو براعة الجاحظ فى توليد المعانى الساخرة ، وذلك بتحليل المعنى الواحد أو الفكرة المحددة إلى معان وأفكار جزئية ، ثم العودة إلى تناول تلك الجزئيات وتضخيمها والتفريع عليها .

فالفكرة الأولى فيما عرضناه آنفاً تدور حول الصورة العامة لشكل ابن عبد الوهاب ، كما صوره الجاحظ « قصيراً مربعاً » غير أن الجاحظ يولد من هذه الصورة الواقعية صورة متخيلة ، وهى أنه « مدوّر » ثم يبنى عليها صورة أخرى ، وهى أنه شبيه بالفلك ، ولكنه فلك من نوع آخر يحوى المتناقضات ويضم المتباعدات .

ثم يولد من الفكرة الأولى أيضاً أن بإمكان ابن عبد الوهاب أن يدعى أنه طويل رشيق ، لأن هذا الادعاء لا يخالفه فيه أحد وهو جالس أو راكب ، وإن كان الخلاف ينشأ عندما يقوم أو يضطجع .

الثانية : التهكم بجهل ابن عبد الوهاب ، وإظهار خوائه ، وكشف زيفه ، وتسفيه ادعائه . ومن هذا الجانب يستطرد الجاحظ فينثر فى رسالته حشداً من الحقائق العلمية والفوائد الأدبية والتاريخية ، وإن يكن معظمها معروضاً فى إطار الاستفهام والاستفسار .

ومهما يكن من أمر فهذه التساؤلات الكثيرة تدل على غزارة ثقافة الجاحظ ، وموسوعية معرفته ، وتنوع مهاراته العقلية . ومن جهة أخرى تكوّن القاعدة التى تنطلق منها سخريته بابن عبد الوهاب ، وإظهاره على هوان شأنه ، وضحالة علمه ، وقلة محصوله .

ونقتطع بعض ما سرده الجاحظ فى هذا الشأن . يقول مُوجّهاً كلامه لابن عبد الوهاب :

« اعلم أن الحسد اسم لما فضل عن المنافسة ، كما أن الجبن اسم لما فضل عن التوقى ، والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد ، والسرف ماجاوز الجود . وأنت - جعلت فداك - لاتعرف هذا ولو أدخلتك الكور[1] ، ونفخت عليك إلى يوم ينفخ فى الصور[2] !!

ويقول له فى موضع آخر :

« وقد اختلفوا فى العقل بأكثر من اختلافهم فى العلم ، فمنعنى من ذكره لك غموضه عليك ، واستتاره عنك ، وعلمت أنى لا أقدر أن أصوره لك دون دهر طويل ، ولا أضمنك معناه دون تريبب كثير »[3] .

ويقول له فى ختام تساؤلاته الكثيرة التى عرضها عليه :

« وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها خرافة ، وما فيها محال ، وما فيها صحيح ، وما فيها فاسد — فألزم نفسك قراءة كتبى ولزوم بابى »[4] ..

الثالثة : مواجهة الجاحظ لابن عبد الوهاب بالمسائل العويصة ، والمعضلات المعجزة ، والتظاهر بأنه يسأله لأنه معدن العلم ، وموضع الثقة ، وهو العالم الحجة

(١) الكور : مجمرة الحداد .

(٢) رسالة التربيع والتدوير ص ١٧

(٣) المرجع السابق ص ٩٣ ، والتريبب : التربية والإصلاح .

(٤) المرجع السابق ص ٩١ .

والراوية الحافظ ، الذى أدرك السابقين ، وحصّل مشافهة علوم الأولين والآخرين .

ها هو ذا الجاحظ يعابثه ويهزأ به فيقول له :

« وقد ذكرت الرواة فى المعمرين أشعاراً ، وصنعت فى ذلك أخباراً ، ولم نجد على ذلك شهادة قاطعة ولا دلالة قائمة ، ولا نقدر على ردها لجواز معناها ، ولا على تثبيتها إذ لم يكن معها دليل يثبتها ، وقد تعرف ما فى الشك من الحيرة ، وما فى الحيرة من القلق ، وما فى القلق من النصب ، وما فى النصب من طول الفكرة . . . فافتح لهيبتك باباً نسترح إليه ، وأقم له علماً نقف عنده ، فقد علمت ما ذكروا من عمر نابغة بنى جعدة ، ومالك ذى الرقيبة ، ونصر بن دهمان .

وأنت – أبقاك الله – تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعمائرهم ، وأصولهم وأجذامهم . تخبرنى أكذبوا أم صدقوا ؟ اقتصدوا أم أسرفوا ؟

ثم يهزأ به مرة أخرى فيقول له بعد أن سرد على مسامعه طائفة من المعارف والحقائق العلمية :

« هذا ما عندى من العلم البرانى ، وأنت أبصر بالعلم الجوانى ، وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طحال له ؟ ولم صار البعير لا مرارة له ؟ ولم كانت السمكة لا رئة لها ؟ . . . وزعمت أنك تعرف فى الخفاش سبعين أعجوبة ، ونحن لا نعرف إلا سبعاً ، وأنك تعرف فى الذهب مائة خصلة كريمة والناس لا يعرفون إلا عشراً ، وأنك تعرف فى البعير ألف داء ودواء ، والأعراب لا تدعى إلا مائة داء بغير دواء (١) .

(١) رسالة التربيع والتدوير ص ٨٨

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه المسائل التى ساقها الجاحظ لابن عبد الوهاب مساق التعجيز والتجهيل قد عرض هو لها فى كتبه ورسائله ، وعلى الأخص فى كتاب « الحيوان » .

« والخلاصة فى رسالة التربيع والتدوير أنها طراز فريد لأدب الفكاهة والتهكم والسخرية ، مع فيض فى المعانى ، وثراء فى الترادف ، ويسر فى الأسلوب وسهولة فى التعبير ، وتلوين فى الصور ، لا يقدر عليها إلا كاتب فنان متمكن مثل الجاحظ »[1].

(١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية للدكتور مصطفى الشكعة ص ٥٨٩

ثالثا : واقعية اللغة

وهى سمة مهمة من سمات الأدب الفكاهى الجاحظى ، وعن طريقها اكتسبت فكاهاته حيويتها وإمتاعها ، لأن هذه الواقعية اللغوية جاءت فى أكثر الأحوال مصحوبة بالتصوير الدقيق والوصف المستوفى ، فأسهمت فى إضفاء طابع الواقعية على صورها المتنوعة ، ولا ريب أن جانبا كبيراً من الإمتاع فى الشىء المضحك يعود إلى تواؤمه مع ذهنية القارىء والسامع ومشاهداته ، فنحن لا نضحك إلا من المواقف التى نستطيع أن نتمثلها ونتخيلها .

وقد برع الجاحظ بهذه الواقعية بشقَّيها : اللغوى ، والتصويرى فى استيفاء تلك الجوانب ، ومن ثم اكتملت لفكاهاته مقومات الطرافة ، واتسمت بالظرف ، وسرت فيها روح المرح .

وبهذه الخاصية اللغوية أعاننا الجاحظ على متابعة محاوراته الفكهة ، وقصصه التى حكاها عن شخصياته المضحكة ، وضاعف من عنصر التشويق فيها ، وبالتالى أشركنا معه فى سخريته ممن سخر منهم ، وتهكمه على من تهكم بهم ، وجعلنا نتعاطف مع أقاصيصه وطرائفه ، وتتبلور لدينا مشاعر الكراهية والازدراء للأشخاص الذين جعلهم هدفا لسخريته .

ومما يسترعى النظر أن الجاحظ كان يعى أهمية تلك الواقعية اللغوية وعلى الأخص فى حكاية الفكاهة أو النادرة ، فتراه يقرر ذلك فى كتاب «البخلاء»[1]

---

(١) ص ٤٠

موضحا المنهج الذى انتهجه فى صياغة طرائف وأخبار الأشخاص الذين حكى نوادرهم وفكاهاتهم ، يقول :

« وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظا معدولا عن جهته فاعلموا أنّا تركنا ذلك لأن الإعراب يبغّض هذا الباب ويخرجه من حده ، إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء وأشحاء العلماء كسهل ابن هارون وأشباهه »(١) .

ويعلل الجاحظ لرأيه فى أسلوب النادرة ، وضرورة إثباتها كما صورت عن قائلها دون تحوير ، أو إعراب لكلام ملحون ، أو العكس ، فيقول فى كتابه « الحيوان »(٢) .

« إن الإعراب يفسد نوادر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب ، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة ، فإذا دخلت على هذا الأمر - الذى إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التى فيه - حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل ، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء ، وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدّلت صورته » .

وفيما يتعلق بالمقالة الأولى التى نبه فيها الجاحظ على وجود عبارات ملحونة

---

(١) لعل فى هذه المقالة من الجاحظ ما يؤكد استنتاجنا السابق حول دوره الفنى فى أقاصيصه الفكاهية وطرائفه التى نثرها فى مؤلفاته المختلفة ، وهو دور الصياغة والسبك ، وإدارة الحوار على النحو الذى يحقق غرضه الفنى فى أدبه الفكاهى .

(٢) ج ١ ص ٢٨١

وكلام غير معرب فى كتابه « البخلاء » ـ اتضح للباحثين أن المخطوطات المتأخرة نسبيا لكتاب « البخلاء » قد غيّر نساخها تلك العبارات الملحونة، ووضعوها فى قالب فصيح ؛ اعتقاداً منهم أنها وردت بطريق الخطأ، ولأنهم لم يدركوا المغزى من وجودها على هذه الصورة، وقد استبان ذلك من مقارنة النسخ القديمة من مخطوطات « البخلاء » بالنسخ الأحدث، إذ تبدو العبارات الملحونة مثبتة كما هى فى النسخ القديمة.

وقد أشارت إلى هذا الكشف الدكتورة وديعة طه النجم فى كتابها « الجاحظ والحاضرة العباسية »[١] تقول :

« فالجاحظ إذا يريد أن يميز بين لغة عامة البخلاء ولغة متكلمى البخلاء أو متعاقلى البخلاء، لكن مما يؤسف له حقا أن البخلاء كما وصلنا بشكله الحالى يضيع علينا كثيراً من الفرصة لإدراك هذه الميزة التى قصد الجاحظ إليها قصداً، والسبب فى ذلك أن الكتاب قد أعيد فيه نظر الباحثين ليحقق هدف اللغة الفصحى لا هدف الجاحظ الفنى عند إثبات الملحون من الكلام ».

ومهما تكن غيرتنا على اللغة الفصحى، وحرصنا على تقوية ما من شأنه النهوض بها فإننا فى هذا المجال لا يسعنا إلا أن نوافق الجاحظ فى وجهته التى تستند على فهم دقيق لطبيعة الفكاهة، وإدراك واع لمتطلباتها .

فالفكاهة — كما لا يخفى على المتأمل — تعتمد على التلميح الدال، والإشارة السريعة، ولا تحتمل التحليل أو الاستقصاء، ومن ثم فهى تستلزم العبارة الواضحة، واللغة السهلة المفهومة، هذا فضلا عن أنها تعتمد فى بعض صورها

---

(١) ص ٢٠٦ .

على إشارات لغوية خاصة يفهمها كل قوم على حسب أعرافهم وعاداتهم ولهجاتهم ، وطرائقهم فى التفاهم والتنادر والغمز والسخرية .

ولعلنا نلحظ أن الذين يصطنعون الفكاهات أو « الفكات » كما تسمى فى عصرنا الحاضر ، يحرصون على تقليد أسلوب من يحكون نوادرهم وفكاهاتهم وقد يعود جانب كبير من الامتاع فى فكاهاتهم إلى تلك الحكاية ، وربما كانت الفكاهة نابعة من الطريقة اللغوية التى يُنطق بها الكلام العادى ، من قِبَلِ شخص أعجمى أو ما شاكل ذلك ، وتصبح طريقة النطق هى موضع التندر والضحك .

ومن المشهور لدى غالبية الناس فى مصر فى العصر الحاضر تندر سائرهم من لهجة بعض أهل الصعيد ، وهم الذين ينطقون « الجيم » « دالا » وهؤلاء تنسب لهم نوادر(١) ذات دلالة خاصة فى ذهن سائر المصريين وهى بالطبع ليست واردة بمعانيها تلك أو إيحاءاتها فى عرف الناطقين بها من أهل الصعيد .

وهذا الذى قرره الجاحظ حول حكاية الفكاهة والنادرة يشبه أن يكون أصلا للنظرية النقدية الذائعة فيما يتعلق بلغة المسرح ، فقد كثر الجدل بين النقاد حول هذه القضية ، فمنهم من ذهب إلى إباحة العامية على الإطلاق ، ومنهم من نادى باصطناع الفصحى حرصاً عليها وصيانة لها ، وفريق ثالث دعا إلى ضرورة إنطاق الشخصيات الممثلة باللغة المناسبة لها ، وهى اللغة التى تستخدمها فى الواقع ، بحيث إذا كانت الشخصية المعروضة على المسرح من عامة الناس فلتكن لغتها

---

(١) من ذلك ما يورده المتندرون على لسان أحد أبناء تلك الجهة من قوله لصاحبه الذى جاء ليزوره فى القاهرة مودعا له : « ... وسلم لى على الأندال ندل ندل وبالأخص الندل الكبير » ! !

الناطقة بها هى العامية ، وإن كانت المسرحية تمثل أشخاصا غرباء فى الزمان بأن كانت تحكى أحداثا تاريخية ، أو فى المكان بأن كانت مترجمة فينبغى أن تكون لغتها هى اللغة الفصحى .

ولعلنا نلمح أن الجاحظ قد وضع أصول هذه النظرية الأخيرة وهو يوضح لنا منهجه فى حكاية أقوال وطرائف بخلائه ، فهو يصطنع اللغة الفصحى بعباراتها الرصينة وقوالبها المحكمة عندما يحكى كلام متعاقلى البخلاء كسهل بن هارون والكندى وأبى العاص وابن التوأم .. ويتسامح فى إيراد العبارات الملحونة ، والكلام العامى عندما يصور أقوال ومحاورات الدهماء والعامة .

وتطبيق الجاحظ لهذه النظرية الصائبة هو الذى أكسب فكاهاته طرافتها وتأثيرها فى قرائه ، إذ استطاع عن طريق اصطناع لغة من يصورهم أن يرسم صوراً دقيقة لشخصياتهم ، ويتبدى ذلك بوضوح فى كتاب « البخلاء » الذى عالج فيه الجاحظ الكتابة بأسلوب الحكاية والوصف فى مواطن كثيرة .

ويأخذنا العجب عندما نتابع الجاحظ فى نوادره التى يحكيها ، فإذا كان بخيله من أهل النظر وأقطاب المتكلمين لمسنا فى الكلام الذى يجريه على لسانه الأقيسة المنطقية ، والاحتجاج المتقن ، وتفنيد آراء الخصم ، وتعقب رأيه وقلب دعواه ... وإذا كان تاجراً رأينا فى كلامه عبارات التجار واصطلاحاتهم وإذا كان فقيها وجدنا منطق الفقهاء وأسلوبهم ... وهكذا فى سائر النماذج الاجتماعية التى عرض لها الجاحظ ، وحكى جانباً من طرائفها ، ورسم صوراً دقيقة لمسالكها وأسلوب حياتها ، مثل الصيارفة ، والمرابين ، والشطّار ، والمكدّين . وهذا الصنيع يدل على ثراء الموهبة الفنية عند الجاحظ وتنوع معارفه ، وتعدد صلاته وملابساته لطبقات الناس وفئاتهم من مختلف الأجناس

والبقاع ومقدرته الفذة على أن يحاكى هذا وذاك ، ويصور بدقة وجلاء حوار أولئك وهؤلاء .

ولنتأمل هذه الفقرة من رسالة سهل بن هارون إلى بنى عمه حين ذموا مذهبه فى البخل ، وتعقبه أقوالهم ورده على مزاعمهم بمنطق محكم وقياس دقيق يقول[١] :

« ... وعبتم على قولى : من لم يتعرف مواقع السرف فى الموجود الرخيص، لم يعرف مواقع الاقتصاد فى الممتنع الغالى . فلقد أتيتُ من ماء الوضوء بكيلة يدلّ حجمها عن مبلغ الكفاية ، وأشفّ[٢] من الكفاية ، فلما صرتُ إلى تفريق أجزائه على الأعضاء وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدتُ فى الأعضاء فضلا على الماء ، فعلمتُ أن لو كنتُ مكنتُ الاقتصاد فى أوائله ورغبت عن التهاون به فى ابتدائه ، لخرج آخره على كفاية أوله ، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر ، فعبتمونى بذلك وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه ، وقد قال الحسن عند ذكر السرف : إنه ليكون فى الماعونين : الماء والكلأ » .

وفى موضع آخر من الرسالة يقول[٣] :

« وعبتمونى حين زعمت أنى أقدّم المال على العلم ، لأن المال به يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم ، وأن الأصل أحق

---

(١) البخلاء ص ١٠

(٢) أشف : أزيد ، من شف الشىء إذا زاد .

(٣) المرجع السابق ص ١٤ .

بالتفضيل من الفرع ، وأنى قلت : وإن كفا نستبين الأمور بالنفوس ، فإنا بالكفاية نستبين وبالخلة[١] نعمى . وقلتم : وكيف تقول هذا ، وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدّم الأدباء : العلماء أفضل أم الأغنياء ؟ قال : بل العلماء . قيل : فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتى الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الأغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما هى الفاصلة بينهما ، وكيف يستوى شىء تُرى حاجة الجميع إليه ، وشىء يغنى بعضهم فيه عن بعض » .

ويحكى الجاحظ فى معرض الحديث عن بخل أهل خراسان خبراً عن أبى نواس يقول فيه : « كان معنا فى السفينة ـ ونحن نريد بغداد ـ رجل من أهل خراسان ، وكان من عقلائهم ومن فقهائهم ، فكان يأكل وحده . فقلت له : لم تأكل وحدك ؟ قال : ليس على فى هذا الموضع مسألة ، إنما المسألة على من أكل مع الجماعة ، لأن ذلك هو التكلف ، وأكلى وحدى هو الأصل ، وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل »[٢] .

وأسلوب الشيخ الخراسانى فى هذه القصة ، ومنطقه فى الجواب يدل على أنه ينتمى إلى ذهنية الفقهاء ، ولو لم يخبرنا الجاحظ فى سياق القصة أنه من عقلاء القوم وفقهائهم لما وجدنا صعوبة فى الاهتداء إلى صناعته .

ويستطرد الجاحظ وهو يحكى نوادر الحارثى فى البخل فيسوق هذا الحوار :

« قيل للحارثى بالأمس : والله إنك لتصنع الطعام فتجيده وتعظم عليك

---

(١) الخلة : الفقر والحاجة ، ونعمى يقصد نجهل (على المجاز) .

(٢) البخلاء ص ٢٤

النفقة وتكثر منه ، وإنك لتغالى بالخبّاز والطبّاخ والشوّاء والخبّاص[١] ، ثم أنت مع هذا كله لا تشهده عدوًا لتغمه ، ولا وليًا فتسره ، ولا جاهلا لتعرّفه ، ولا زائراً لتعظّمه ، ولا شاكراً لتثبته . . . قال : يمنعنى من ذلك ما قال أبو الفاتك . قالوا : ومن أبو الفاتك ؟ قال : قاضى الفتيان ، وإنى لم آكل مع أحد قط إلا رأيت منه بعض ما ذمه ، وبعض ما شنّعه وقبّحه ، فشىء يقبح بالشطار فما ظنك به إذا كان فى أصحاب المروءات وأهل البيوتات؟ قالوا : فما قال أبو الفاتك ؟

قال : قال أبو الفاتك : الفتى لا يكون نَشّالاً ، ولا نَشّافاً ، ولا مرسالاً ، ولا لكّاماً ، ولا مصّاصاً ، ولا نفّاضاً ، ولا دلاّكاً ، ولا مقوّراً ، ولا مغربلاً ، ولا محلقماً ، ولا مسوّغاً ، ولا ملغّماً ، ولا مخضّراً . فكيف لو رأى أبو الفاتك اللطّاع والقطّاع والنهّاش والمدّاد والدفّاع والمحوّل ؟ »[٢] .

والقصة على طرافتها ، وما يبدو فيها من احتيال لدفع تهمة البخل — تحفل بالألفاظ ذات الدلالة الخاصة ، والتى تمثل قاموساً خاصاً — إن صح هذا التعبير — فى أوصاف النّهمين وأرباب الشره ، ولذا حرص الجاحظ على تفسيرها فأفرد لها موضعاً بعد أن سرد طائفة من نوادر الحارثى ، قال[٣] :

أما قوله : الفتى لا يكون نَشّالاً « فالنشّال » عنده : الذى يتناول من القدر ، ويأكل قبل النضج ، وقبل أن تنزل القدر ويتتامّ القوم .

---

(١) الخباص : صانع الخبيص ، وهو نوع من الحلوى .
(٢) البخلاء ص ٦٧
(٣) المرجع السابق ص ٧٦ ومابعدها .

و « النشّاف » : الذى يأخذ حرف الجرذقة ، فيفتحه ، ثم يغمسه فى رأس القدر ، ويشربه الدسم ، يستأثر بذلك دون أصحابه .

و « الموسال » رجلان : أحدهما إذا وضع فى فيه لقمة هريسة أو ثريدة أو حيسة[1] أو أرزة . أرسلها فى جوف حلقه إرسالا .

والوجه الآخر : هو الذى إذا مشى فى أشب[2] من فسيل[3] أو شجر قبض على رأس السعفة ، أو على رأس الغصن ، لينتحيها عن وجهه ، فإذا قضى وطره أرسلها من يده ، فهى لا محالة تصك وجه صاحبه الذى يتلوه ، لا يحفل بذلك ، ولا يعرف ما فيه .

وأما « اللكّام » : فالذى فى فيه اللقمة ، ثم يلكمها بأخرى قبل إجادة مضغها أو ابتلاعها

و « المصّاص » : الذى يمص جوف قصبة العظم ، بعد أن استخرج مخه واستأثر به دون أصحابه .

وأما « النفّاض » : فالذى إذا فرغ من غسل يده فى الطست نفض يده من الماء ، فنضح على أصحابه .

وأما « الدلاّك » : فالذى لا يجيد تنقية يديه بالأشنان[4]، ويجيد دلكها بالمنديل . . .

---

(١) الحيسة : تمر ينزع نواه ويخلط باللبن والسمن ويدلك حتى يصير كالزبد .
(٢) أشب : ملتف .
(٣) فسيل : صغار النخل .
(٤) الأشنان : نبات تغسل به الثياب والأيدى .

و « المقور » : الذى يقور الجراذق ، ويستأثر بالأوساط ، ويدع لأصحابه الحروف .

و « المغربل » : الذى يأخذ وعاء الملح ، فيديره إدارة الغربال ليجمع أبازيره[١] ، يستأثر به دون أصحابه ، لا يبالى أن يدع ملحهم بلا أبزار .

و « الحلقم » : الذى يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه ...

و « المسوغ » : الذى يعظم اللقم ، فلا يزال قد غص ، ولا يزال يسيغه بالماء .

و « الملغم » : الذى يأخذ حروف الرغيف ، أو يغمز ظهر التمرة بإبهامه ، ليحملا له من الزبد والسمن ، ومن اللبأ واللبن ، ومن البيض النيمبرشت[٢] أكثر .

و « المخضّر » : الذى يدلك يده بالأشنان من الغمر والودك[٣] ، حتى إذا اخضر واسودّ من الدّرن ، دلك به شفته .

هذا تفسير ما ذكر الحارثى من كلام أبى فاتك ، فأما ما ذكره هو : فإن « اللطّاع » معروف ، وهو الذى يلطع إصبعه ، ثم يعيدها فى مرق القوم أولبنهم أو سويقهم وما أشبه ذلك .

---

(١) أبازيره : توابله ، أى التى تخلط بالملح لتكون من المشهيات .

(٢) النيمبرشت : هو مايدعونه فى مصر الآن بالبرشت ، وهو مالم يتم نضجه .

(٣) الغمر : ريح اللحم ، ومايعلق باليد من دسمه ، والودك : دسم اللحم والشحم ومايتحلب من ذلك .

و « القطاع » الذى يعض على اللقمة ، فيقطع نصفها ، ثم يغمس النصف الآخر فى الصباغ .

و « النهاش » : وهو الذى ينهش اللحم كما ينهش السبع .

و « المداد » : الذى ربما عض على العصبة التى لم تنضج ، وهو يمدها بفيه ، ويده توتِّرها[١] له ، فربما قطعها بنترة ، فيكون لها انتضاح على ثوب المؤاكل وهو : الذى أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهريسة أو الأرزة ، فأتى على ما بين يديه ، مدّ ما بين أيديهم إليه .

و « الدقاع » : الذى وقع فى القصعة عظم ، فصار مما يليه ، نحاه بلقمة من الخبز حتى تصير مكانه قطعة من لحم ، وهو فى ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق دون إراغة[٢] اللحم .

و « المحول » : هو الذى إذا رأى كثرة النوى بين يديه ، احتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه .

ولعل الجاحظ قد أدرك أن هذه الأوصاف التى وردت فى كلام أبى فاتك ثم الحارثى ، تمثل عرفا خاصاً لنوعيات من اللعامظة[٣] وقذرى المؤاكلة ومن ثَمّ تولّى تفسيرها وبيان المراد بكل وصف منها ، وهى كما رأينا تشتمل على معظم أوصاف الطفيليين[٤] ومن يغلب على نفوسهم الشره والطمع فيستدل بسلوكهم

(١) توترها : تشدها . (٢) أى طلبه والسعى إليه .

(٣) واحدها لعمظ ، وهو النهم الشهوان . ويقال له العموظ أيضا .

(٤) الطفيليون ، ينتسبون إلى رجل من أهل الكوفة يدعى «طفيل» قال عنه =

على انحطاطهم عن رتبة ذوى الهمم العالية والنفوس الأبية من أهل القناعة ، ومن يكتفون من الطعام بما يرد الجوع ، ويقيم الأود .

وفى حديث الجاحظ عن خالد بن يزيد - أو خالويه المكدى[١] كما كان يدعى - يسوق على لسانه طائفة من العبارات والاصطلاحات التى يتداولها المكدون وكان الجاحظ أول الكتاب العرب تنويها بهم وذكراً لهم ، يقول حاكياً طرائف خالويه المكدى :

« وكان ينزل فى شق بنى تميم فلم يعرفوه ، فوقف عليه ذات يوم سائل وهو فى مجلس من مجالسهم فأدخل يده فى الكيس ليخرج فلسا فغلط بدرهم . . فلم يفطن حتى وضعه فى يد السائل ، فلما فطن استرده وأعطاه الفلس ، فقيل له : هذا لا نظنه يحل ، وهو بعد قبيح . قال : قبيح عند من ؟ إنى لم أجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم . ليس هذا من مساكين الدراهم . هذا من مساكين الفلوس . والله ما أعرفه إلا بالفراسة . قالوا : وإنك لتعرف المكدين ؟ قال : وكيف لا أعرفهم وأنا كنت « كاجار »[٢] فى حداثة سنى ، ثم لم يبق فى الأرض مخطرانى ولا مستعرض إلا فقته ، ولا شحاذ ولا كاغانى ولا بانوان

= الجاحظ : كان أبعد الناس نجعة فى طلب الولائم والأعراس، فقيل له لذلك «طفيل العرائس » ، وصار ذلك نبزا له ، ولقبا لايعرف بغيره ، فصار كل من كانت تلك طعمته يقال له : طفيلى . (البخلاء ص ٧٨) .

(١) المكدى : من التكدية وهى استجداء الناس ، وطلب المال منهم ، وإن كان تصوير الجاحظ لهم يتجاوز هذا المعنى اللغوى المحدد كما سنرى .

(٢) كاجار : ذهب الدكتور طه الحاجرى فى تفسيرها إلى أنها كلمة كانت تطلق على بعض القبائل التركية الرحالة ، وعنها أخذت كلمة « غجر » التى تطلق على طائفة «النور» (البخلاء ص ٣٠٩) .

ولا قرسى ولا عواء ولا مشعب ولا فلور ولا مزيدى ولا اسطيل إلا وكان تحت يدى . . . ولم يبق فى الأرض كعى ولا مكد إلا وقد أخذت العرافة عليه » .

وكما فعل الجاحظ بكلام أبى فاتك والحارثى عرّج على مقـالة خالويه ، ففسر ما اشتملت عليه من ألفاظ ومسميات يعرفها المكدون وتدور على ألسنتهم ، فقال :

المخطرانى : الذى يأتيك فى زىّ ناسك ، ويريك أن « بابك »[1] قد قور لسانه من أصله لأنه كان مؤذناً هناك ، ثم يفتح فاه كما يصنع من يتثاءب ، فلا ترى له لساناً البتة ، ولسانه فى الحقيقة كلسان الثور . وأنا أحد من خدع بذلك ، ولا بد للمخطرانى أن يكون معه واحد يعبر عنه ، أو لوح أو قرطاس قد كتب فيه شأنه وقصته .

والكاغـانى : الذى يتجنّن ويتصارع[2] ويزبد ، حتى لا يُشَكّ أنه مجنون لا دواء له ، لشدة ما ينزل بنفسه ، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علّته .

والبانوان : الذى يقف على الباب ويسلّ الغلق[3] ، ويقول : بانوا . وتفسير ذلك بالعربية : يا مولاى[4] .

(١) هو بابك الخرمى الذى خرج فى زمن المعتصم ثم قتل .
(٢) يتجنن : يتظاهر بالجنون ، ويتصارع . يتظاهر أنه مصاب بالصرع .
(٣) الغلق : ما يغلق به الباب ، ويسل الغلق : ينزعه من موضعه ليفتح الباب .
(٤) علق الدكتور صلاح الدين المنجد فى كتابه « الظرفاء والشحاذين فى بغداد =

والقرسى : الذى يعصب ساقه وذراعه عصباً شديداً ، ويبيت على ذلك ليلة ، فإذا تورّم واختنق الدم ، مسحه بشيء من صابون ودم الأخوين[١]، وقطر عليه شيئاً من سمن ، وأطبق عليه خرقة ، وكشف بعضه ، فلا يشك من رآه أن به الأكلة[٢] أو بلية تشبه الأكلة.

والمشعّب : الذى يحتال للصبي حين يولد ، بأن يعميه أو يجعله أعسم أو أعضد[٣]، ليسأل الناسَ به أهلُه ، وربما جاءت به أمه وأبوه[٤] ليتولى ذلك منه بالنوم الثقيل ، لأنه يصير حينئذ عقدة وغلّة[٥]، فإما أن يكتسبا به وإما أن يكرياه بكراء معلوم . وربما أكروا أولادهم ممن يمضى إلى أفريقية فيسأل بهم الطريق أجمع بالمال العظيم ، فإن كان ثقة مليئاً وإلا أقام بالأولاد والأجرة كفيلا .

= وباريس» ص ٩١ - علق على هذا التفسير قال : كذا أورده الجاحظ، وقد أخبرنى الأستاذ الشاعر أحمد الصافى النجفى أن الأصح : « بينـوا » ومعناها بالفارسية : منقطع مسكين .

(١) دم الأخوين : نوع من العقاقير تداوى به الجراحات .

(٢) الأكلة : الحكة والجرب .

(٣) الأعسم : المصاب بيبس فى مفصل الرسغ فاعوجت منه يده ، وقد يكون فى القدم . والأعضد الدقيق العضد ، والذى تكون إحدى عضديه قصيرة .

(٤) أبدى الجاحظ دهشته من مسلك هؤلاء القساة وعملهم الذى يتنافى مع كل القيم الإنسانية بل مع مقتضى الفطرة . فقال فى كتابه «البرصان والعرجان» (ص٢٣٧): «فلا أدرى أيهم أعظم كفرا وأقسى قلبا، الآباء أو الأمهات الذ[illegible] لادهم إلى المشعب وهم أطفال حتى يعمى أبصارهم ويعرج أرجلهم ويزمنهم ويشوه بهم أو المشعب نفسه الذى ترك كل صناعة فى الأرض وتعلم هذه الصناعة فجعلها مكسبه التى لا يفارقها..».

(٥) العقدة : الضيعة والعقار ومافيه بلاغ الرجل . والغلة : كل مايحصل من ريع الأرض أو أجرتها ونحو ذلك . والمراد أنه يصير مصدر ربح .

ويمضى الجاحظ على هذا النحو فيفسر كلام خالويه ويطلعنا من خلال ذلك على كثير من حيل المكدين وتفننهم فى استخراج الأموال من أيدى الناس بوسائل شتى وأفانين من المكر والخداع والختل، ويصور دقائق وأسرارا لا يعرفها عنهم سائر الناس، ويشير الجاحظ فى ختام تفسيره لما ورد فى قصة خالويه إلى أنه اكتفى بتفسير ما ذكره خالويه، وإن كان المكدون فى الحقيقة أضعاف ما ذكره أو أشار إليه.

ولا يفوت الجاحظ أن يمتع قراء « البخلاء » بوصية خالويه لابنه، وهى حافلة بالتصوير الدقيق لحيل المكدين وطباعهم، والجدير بالنظر فى هذه الوصية أن الجاحظ أجرى على لسان خالويه عبارات بذيئة فى معرض نصحه لولده، فتراه يقول له مثلا :

« يا ابن الخبيثة، إنك وإن كنت فوق أبناء هذا الزمان فإن الكفاية قد مسختك ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك »(١).

ولا غرابة فى أن يتفوه رجل مثل خالويه بتلك الألفاظ، وهو كما صوره لنا الجاحظ ذو وجاهة فى عالم المكدين، وتلك هى طباعهم، وذلك الأسلوب فى الحديث والنصح هو أسلوبهم.

وجملة القول أن واقعية التعبير فى الأدب الفكاهى عند الجاحظ تعد من الملامح المميزة لأسلوبه وتضطلع بدور مهم فى حرارة فكاهاته وعذوبة طرائفه، وقد استبان لنا من خلال ما سقناه حولها أن أبا عثمان قد وضع أصول نظرية نقدية لها وزنها فى لغة المسرح فى العصر الحديث.

---

(١) البخلاء ص ٤٩ .

رابعا : الأقصوصة الفكاهية

وهى تلك القصص التى تطول قليلا عن الطرفة أو النادرة ، وتصور حدثاً متكاملا ، ويدور حول موقف محدد ، ويستغرق وقتاً قد يطول بعض الشيء ، ويكون الحدث فيها طريفاً غريباً ، ويتعلق بشخص واحد أو عدد قليل من الأشخاص .

وتمثل تلك الأقاصيص عنصراً مهماً من عناصر الأدب الفكاهى عند الجاحظ ، وتعد سمة من السمات المميزة لفكاهاته ، وتتحقق فيها كافة المميزات المعنوية والأسلوبية للفكاهة عنده . فقد برع الجاحظ فى اصطناع الأقاصيص الفكهة ، وأجاد أيما إجادة فى إخراجها على صورة فنية متقنة ، إذ نراها محكمة الصياغة ، سلسة السرد ، حافلة بالتصوير الدقيق والحوار المشوق .

وتنبعث الفكاهة فى تلك الأقاصيص من طرافة الأحداث وغرابتها ، ومن شخصيات أبطالها وما تنطوى عليه تصرفاتهم من مفارقات مضحكة ، وما يتورطون فيه من مشكلات يحتالون للخروج منها والتغلب عليها ، فيحالفهم الصواب حيناً ويخطئهم أحياناً ، وفى الحالين يكونون موضع عجب القراء والسامعين سواء أظهروا دهاء وكياسة لم نتوقعها منهم أم حاولوا الظهور للناس بصفات ليست فيهم ، ثم جاءت الوقائع والأحداث لتكشف تزييفهم وخداعهم .

وهذه إحدى أقاصيص الجاحظ الفكاهية التى تطلعنا على أسلوبه فى صياغة ذلك اللون الممتع من ألوان أدبه الفكاهى ، إذ نلمس فيها طرافة الحدث ، وإتقان الحبكة القصصية ، وجمال السرد ، ودقة الوصف ، وبراعة التصوير .

حكى الجاحظ عن بشر بن سعيد قال[1] :

« كان بالبصرة شيخ من بنى نهشل يقال له « عروة بن مرثد » ، نزل ببنى أخت له فى سكة بنى مازن ، وبنو أخته من قريش ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك فى شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين فى مسجدهم ، فلم يبق فى الدار إلا كلب يعس ، فرأى بيتاً فدخل ، وانصفق الباب ، فسمع الحركة بعض الإماء ، فظنوا أن لصًّا دخل الدار ، فذهبت إحداهن إلى أبى الأعز ، وليس فى الحىّ رجل غيره ، فأخبرته . فقال أبو الأعز : ما يبتغى اللص منا ؟! ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال : إيه يا ملأمان ! أما والله إنك بى لعارف ، وإنى بك أيضاً لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بنى مازن ، شربت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا دارت الأقداح فى رأسك منّتك نفسك الأمانىّ ، وقلت : دور بنى عمرو والرجال خلوف ، والنساء يصلين فى مسجدهن فأسرقهن ! سوءة والله ، ما يفعل هذا الأحرار ! لبئس والله ما منّتك نفسك ! فاخرج وإلا دخلت عليك فصرمتك[2] منى العقوبة ! لأيم الله لتخرجنّ أو لأهتفنّ هتفة مشئومة عليك ، يلتقى فيها الحيان عمرو وحنظلة ، ويصير أمرك إلى تباب ، ويجىء سعد بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من ها هنا وها هنا ! ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود فى بنى تميم !

فلما رأى أنه لا يجيبه أخذه باللين وقال : اخرج يا بنى وأنت مستور ، إنى والله ما أراك تعرفنى ، ولو عرفتنى لقد قنعت بقولى ، واطمأننت إلىّ ، أنا عروة بن مرثد أبو الأعز المرثدى ، وأنا خال القوم ، وجلدة ما بين

---

(١) الحيوان ج ٢ ص ٢٣١ .
(٢) صرمتك : قطعتك قطعا بائنا .

أعينهم ، لا يعصونني في أمر ، وأنا لك بالذمة كفيل خفير ، أصهرك بين شحمة أذني وعاتقي لا تضار ، فاخرج فأنت في ذمتي ، وإلا فإن عندي قوصرتين[١] إحداهما إلى ابن أختي البار الوصول ، فخذ إحداهما فانتبذها[٢] حلالا من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق ، وإذا سكت وثب يريغ[٣] المخرج فتهافت الأعرابي أي تساقط ثم قال : يا ألأم الناس وأوضعهم ، ألا يأتي لك أنا منذ الليلة في واد وأنت في آخر ، إذا قلت لك السوداء والبيضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكت عنك تريغ المخرج ؟ ! والله لتخرجن بالعفو عنك أو لألجن عليك بالعقوبة !

فلما طال وقوفه جاءت جارية من إماء الحي فقالت : أعرابي مجنون !! والله ما أرى في البيت شيئاً !! ودفعت الباب فخرج الكلب شدا ، وحاد عنه أبو الأعز مستلقيا !! وقال : الحمد لله الذي مسخك كلبا ، وكفاني منك حربا !! ثم قال : تالله ما رأيت كالليلة ، ما أراه إلا كلبا !! أما والله لو علمت بحاله لولجت عليه » .

وفي أقصوصة الشيخ المرثدي هذه تكتمل عناصر الموقف الفكاهي المضحك والذي ينبعث فيها من مشاعر الخوف والاضطراب التي استولت على الشيخ وظهرت على أقواله وتصرفاته ، وإن حاول جاهداً أن يخفيها . وقد أبدع الجاحظ في حبك الأقصوصة ، وجعل تسلسل الأحداث فيها متوائما مع طرافة الحوار

---

(١) القوصرة : وعاء من قصب يوضع فيه التمر .
(٢) انتبذها : خذها مستحقا لها .
(٣) يريغ : يريد ويطلب .

ففى البداية أراد الشيخ أن يشجع نفسه فحمل عصاه واتجه ناحية البيت وأخذ يفيض فى تهديده لذلك اللص المزعوم ، ويتوعده ، ويؤنبه على فعلته المعيبة ، ثم عندما أحس أن ذلك لم يجد شيئاً لجأ إلى وسيلة أخرى للتخلص من شر اللص ، فعرض عليه أن يؤمنه ويجيره ، بل تنازل فقرر أن يمنحه عطاء ولوّح له بنوعيّة الجائزة ، وأن يستر عليه ولا يكشف أمره . . . كل ذلك ليغطى شعوره بالخوف ، وليتخلص من ذلك الموقف الحرج الذى وضعته الظروف فيه ، حيث لم يكن فى الحى رجل غيره .

وبالإضافة إلى ما يحيط بالحدث الرئيسى فى الأقصوصة من بواعث الإضحاك لما فى الموقف نفسه من مفارقة تنتزع الضحك انتزاعا . فقد ساق الجاحظ على لسان الشيخ المرتدى بعض الأقوال التى تبين عن اضطرابه وقلقه ونفاذ حيلته ، وذلك عندما يتفوه ببعض عبارات لا تجديه شيئا فى هذا الموقف ، كأن يعرف اللص بنفسه ، ويذكر له اسمه وكنيته ، ويدلّه على منزلته عند بنى أخته وأنهم بارون به ، وصولون له .

ولا يخفى أن التصوير فى الأقصوصة دقيق كل الدقة ، حتى إن الجاحظ ليأخذنا فى بعض الأحيان لنرى المشهد الذى يصوره ، وكأنه ماثل أمام أعيننا من ذلك تصويره للشيخ عندما كان يسمع حركة داخل البيت فى أثناء حواره مع اللص و « مفاوضته » له يقول :

« فتهافت الأعرابى أى تساقط » .

ومن المشاهد التى برع الجاحظ كذلك فى تصويرها مشهد خروج الكلب من البيت بعد أن دفعت الجارية الباب . يقول الجاحظ :

« فخرج الكلب شدًّا ، وحاد عنه أبو الأعز مستلقيا » .

وهنا يرسم الجاحظ صورة حية المشهد ، حيث ينطلق الكلب مسرعا وقد انفسح أمامه السبيل بعد حبس طويل ، ويتنحى أبو الأعز وقد أزعجه الخوف، فيستلقى على ظهره ، وهو يخلى الطريق لذلك « الشىء » الذى نشر الخوف فى كيانه كله ، وكاد يأتى عليه فزعاً وفرقاً .

وثمة أقصوصة أخرى نعرضها فى هذا السياق وهى عن أقاصيص الأعراب أيضا ، غير أنها هنا تكشف عن مكرهم وتفاؤلهم ، حكى الجاحظ عن أحد رُواته قال : حدثنى أعرابى كان ينزل بالبصرة قال : قدم أعرابى من البادية فأنزلته ، وكان عندى دجاج كثير ، ولى امرأة وابنان وابنتان منها ، فقلت لامرأتى : بادرى واشوى لنا دجاجة وقدّميها إلينا نتغداها ، فلما حضر الغداء جلسنا جميعا : أنا وامرأتى وابناى وابنتاى والأعرابى . فدفعنا إليه الدجاجة فقلنا : اقسمها بيننا — نريد بذلك أن نضحك منه — فقال : لا أحسن القسمة فإن رضيتم بقسمتى قسمتها بينكم . قلنا : فإنا نرضى . فأخذ رأس الدجاجة فقطعه فناولنيه وقال : الرأس للرأس ، وقطع الجناحين وقال : الجناحان لابنين ، ثم قطع الساقين فقال : الساقان للابنتين . ثم قطع الزّمكّى[1] وقال : العجز للعجز ، وقال : الزور للزائر ، قال : فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا ، قال : فلما كان من الغد قلت لامرأتى : اشوى لنا خمس دجاجات فلما حضر الغداء . قلت : أقسم بيننا . قال : إنى أظن أنكم وجدتم[2] فى أنفسكم قلنا : لا . لم نجد فى أنفسنا فاقسم . قال : أقسم شفعا أو وترا قلنا : اقسم وترا . قال : أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة ثم رمى إلينا بدجاجة ثم قال : وابناك ودجاجة ثلاثة

---

(١) الزمكى : منبت الذنب .

(٢) وجدتم — بكسر الجيم — غضبتم .

ثم رمى إليهما بدجاجة ، ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاثة ثم رمى إليهما بدجاجة، ثم قال: أنا ودجاجتان ثلاثة . وأخذ دجاجتين وسخر بنا . وقال: فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه فقال : ماتنظرون ! لعلكم كرهتم قسمتى . الوتر لا يجيء إلا هكذا . فهل لكم فى قسمة الشفع ؟ قلنا : نعم ، فضمهن إليه ثم قال : أنت وابناك ودجاجة أربعة ورمى إليها بدجاجة ثم قال : والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة ورمى إليهن بدجاجة ، ثم قال : أنا وثلاث دجاجات أربعة وضم إليه الثلاث ، ورفع يديه إلى السماء وقال : اللهم لك الحمد أنت فهمتنيها ! !

أما أقاصيص البخلاء فهى كثيرة ومتنوعة ، منها ما يدور حول شخصية من شخصيات البخلاء ، أو عصبة منهم ، كقصة المسجديين ، ومنها ما يحكيه الجاحظ بأسلوب السرد المباشر وذلك عندما يكون هو — أو من يروى عنه — معاينا للأحداث التى يحكيها ، وفى الحالين كليهما تستوفى الأقصوصة أركانها التى رأيناها فى الأقاصيص المعروضة قبل قليل ، من تتابع الحدث بصورة منطقية إلى توفر عنصر التشويق ، إلى متانة الصياغة ودقة الوصف .

ولنستعرض هنا جانبا من أقاصيص المسجديين ، وهم — كما عرف بهم الجاحظ[1] — ناس ممن ينتحل الاقتصاد فى النفقة والتثمير للمال من أصحاب الجمع والمنع . وقد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب ، وكالحلف الذى يجمع على التناصر ، وكانوا يجتمعون فى المسجد ، فإذا التقوا فى حلقهم تذاكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه ، التماساً للفائدة ، واستمتاعا بذكره .

فقال شيخ منهم :

---

(١) البخلاء ص ٢٩ ومابعدها .

ماء بئرنا — كما قد علمتم — مالح أجاج ، لا يقربه الحمار ، ولا تسيغه الإبل وتموت عليه النخل ، والنهر منا بعيد ، وفى تكلف العذب علينا مؤونة ، فكنا نمزج منه للحمار فاعتل منه . . . فصرنا بعد ذلك نسقيه العذب صرفا ، وكنت أنا والنعجة[1] كثيراً ما نغتسل بالعذب مخافة أن يعترى جلودنا منه مثل ما اعترى جوف الحمار ، فكان ذلك الماء العذب يذهب باطلا ، ثم انفتح لى باب من الإصلاح ، فعمدت إلى ذلك المتوضأ ، فجعلت فى ناحية منه حفرة ، وصهرجتها[2] وملستها ، حتى صارت كأنها صخرة منقورة ، وصوبت إليها المسيل ، فنحن الآن إذا اغتسلنا صار الماء إليها صافيا لم يخالطه شيء . . . والحمار لا تقزز له من ماء الجنابة وليس علينا حرج فى سقيه منه . وما علمنا أن كتابا حرمه ، ولا سنّة نهت عنه ، فربحنا هذه منذ أيام ، وأسقطنا مؤنة عن النفس والمال .

قال القوم : هذا بتوفيق الله ومنّه .

وأقبل عليهم شيخ فقال :

هل شعرتم بموت مريم الصناع ... الخ.

ثم يسرد الجاحظ حكاية مريم الصناع كما حكاها ذلك الشيخ ، ويندفع شيخ آخر منهم فيحكى قصة له مع السمّال وكيف استشفى بماء النخالة ووجده طيبا جداً حتى أوصى امرأته بأن تطبخه لعيالهم . ويتدافع شيوخ البخلاء واحداً إثر واحد كل يحكى قصة أطرف من سابقتها ، حتى ينتهى الأمر إلى شيخ منهم يحكى قصة معاذة العنبرية فيقول :

---

(١) يريد بالنعجة امرأته. قال فى اللسان: والعرب تكنى بالنعجة والشاة عن المرأة.

(٢) صهرجتها : أى عالج جوانبها بالقطران حتى لا يتسرب منها الماء .

لم أر فى وضع الأمور مواضعها وفى توفيتها غاية حقوقها كمعاذة العنبرية .
قالوا : وما شأن معاذة هذه ؟ قال :

أهدى إليها العام ابن عم لها أضحية[١] ، فرأيتها كئيبة حزينة مفكرة مطرقة . فقلت لها : مالك يا معاذة ؟ قالت : أنا امرأة أرملة وليس لى قيم ، ولا عهد لى بتدبير لحم الأضاحى ، وقد ذهب الذين كانوا يدبرونه ويقومون بحقه ، وقد خفت أن يضيع بعض هذه الشاة ، ولست أعرف وضع جميع أجزائها فى أماكنها ، وقد علمت أن الله لم يخلق فيها ولا فى غيرها شيئاً لا منفعة فيها ، ولكن المرء يعجز لا محالة ، ولست أخاف من تضييع القليل إلا أنه يجر تضييع الكثير .

أما القرن فالوجه فيه معروف ، وهو أن يجعل منه كالخطاف ، ويسمّر فى جذع من أجذاع السقف ، فيعلق عليه الزّبل والكيران[٢] ، وكل ما خيف عليه من الفأر والنمل والسنانير وبنات وردان[٣] والحيات ، وغير ذلك . وأما المصران فإنه لأوتار المندفة ، وبنا إلى ذلك أعظم الحاجة . وأما قحف الرأس واللحيان وسائر العظام فسبيله أن يكسر بعد أن يعرق ، ثم يطبخ ، فما ارتفع من الدسم كان للمصباح وللإدام وللعصيدة ولغير ذلك ، ثم تؤخذ تلك العظام فيوقد بها ، فلم ير الناس وقوداً أصفى ولا أحسن لهباً منه . . .

---

(١) الأضحية : الشاة التى تذبح ضحوة ، جمعها أضاحى . ثم جعلت الكلمة للشاة التى تذبح يوم الأضحى .

(٢) الزبل ، جمع زبيل : القفة أو الجراب أو الوعاء . والكيران : الرحل ، جمع كور .

(٣) بنات وردان : الصراصير .

وأما الإهاب[١] فالجلد نفسه جراب ، وللصوف وجوه لا تعد . وأما الفرث والبعر فحطب إذا جف عجيب .

ثم قالت : بقي الآن علينا الانتفاع بالدم ، وقد علمت أن الله ـ عز وجل ـ لم يحرم من الدم المسفوح إلا أكله وشربه ، وأن له مواضع يجوز فيها ولا يمنع منها ، وإن أنا لم أقع على علم ذلك حتى يوضع موضع الانتفاع به ، صار كية في قلبي . وقذى في عيني ، وهماً لا يزال يعودني .

قال : فلم ألبث أن رأيتها قد طلقت وتبسمت فقلت : ينبغي أن يكون قد انفتح لك باب الرأى في الدم . قالت : أجل ، ذكرت أن عندى قدوراً شامية جدداً وقد زعموا أنه ليس شيء أدبغ ولا أزيد في قوتها من التلطيخ بالدم الحار الدسم ، وقد استرحت الآن إذ وقع كل شيء في موقعه .

قال : ثم لقيتها بعد ستة أشهر ، فقلت لها : كيف كان قديد[٢] تلك ؟ قالت : بأبي أنت ! لم يجيء وقت القديد بعد ، لنا في الشحم والألية والجنوب والعظم المعرق وفي غير ذلك معاش ولكل شيء إبان .

فقبض صاحب الحمار والماء العذب قبضة من حصى ، ثم ضرب بها الأرض ثم قال : لا تعلم أنك من المسرفين ، حتى تسمع بأخبار الصالحين » .

وبهذا السياق الممتع والسرد الأخاذ يشركنا الجاحظ في الاستماع إلى هذه الطائفة من أقاصيص أهل البصرة من المسجديين ، وفي كل أقصوصة منها صورة دقيقة لطباع أولئك البخلاء المقترين ، وعنصر التشويق في كل منها بارز

---

(١) الإهاب : الجلد قبل الدبغ ، أو هو الجلد مطلقا وهو الأنسب هنا .
(٢) القديد : اللحم المملوح المجفف في الشمس .

بروزاً بيناً ، وتتدرج الأقاصيص فى دلالتها على الاقتصاد وبذل أقصى الجهد فى الوقوف على باب من أبواب تحقيق المنفعة بأقل ما يمكن من النفقات حتى نصل إلى قصة معاذة العنبرية ، فنرى العجب العجاب فى الحرص والشح ، بحيث لم تغادر من الشاة المهداة إليها شيئاً إلا أفادت منه وانتفعت به ، حتى أن صاحب الأقصوصة الأولى لما سمع قصتها لم يتمالك أن قبض قبضة من الحصى ثم ضرب بها الأرض إعجاباً وطرباً بسلوك أئمته فى البخل وشيوخه فى الحرص والاقتصاد ، وأيضاً حسرة وندماً لإدراكه أنه من المسرفين ، وقد كان يعتقد نفسه فى « الصالحين »

وهذه أقصوصة ـ أخيرة ـ حكاها الجاحظ عن « المصرى » الذى يصور بخل جاره « الداردريشى » قال[1] :

« وكان أخوه شريكه فى كل شىء ، وكان فى البخل مثله ، فوضع أخوه فى يوم جمعة بين أيدينا ـ ونحن على بابه ـ طبق رطب يساوى بالبصرة دانقين ، فبينا نحن نأكل إذ جاء أخوه فلم يسلّم ولم يتكلم حتى دخل الدار ، فأنكرنا ذلك ، وكان يفرط فى إظهار البشر ، ويجعل البشر وقاية دون ماله ، وكان يعلم أنه إن جمع بين المنع والكبر قتل . قال : ولم نعرف علته ، ولم يعرفها أخوه . فلما كان الجمعة الأخرى ، دعا أيضاً أخوه بطبق رطب ، فبينا نحن نأكل إذ خرج من الدار ولم يسلم ولم يقف ، فأنكرنا ذلك ، ولم ندر أيضاً ما قصته فلما أن كان فى الجمعة الثالثة ، ورأى مثل ذلك ، كتب إلى أخيه : « يا أخى كانت الشركة بينى وبينك حين لم يكثر الولد ، ومع الكثرة يقع الاختلاف ، ولست آمن أن يخرج ولدى وولدك إلى مكروه . . وها هنا أموال باسمى

---

(١) البخلاء ص ١٣٢ .

ولك شطرها ، وأموال باسمك ولى شطرها ، وصامت فى منزلى وصامت فى منزلك ، لا نعرف فضل بعض ذلك على بعض ، وإن طرقنا أمر الله ركدت الحرب بين هؤلاء الفتية ، وطال الصخب بين هؤلاء النسوة ، فالرأى أن نتقدم اليوم فيما يحسم عنهم هذا السبب » .

فلما قرأ أخوه كتابه ، تعاظمه ذلك وهاله ، وقلب الرأى ظهراً لبطن ، فلم يزده التقليب إلا جهلا ، فجمع ولده وغلّظ عليهم ، وقال : عسى أن يكون أحد منكم قد أخطأ بكلمة واحدة ، أو يكون هذا البلاء من جرائر النساء ، فلما عرف براءة ساحة القوم ، تمشى إليه حافياً راجلا ، فقال : ما يدعوك إلى القسمة والتمييز ؟ ادع صلحاء أهل المسجد الساعة حتى أشهدهم بأنى وكيل لك فى هذه الضياع ، وحوّل كل شىء فى منزلى إلى منزلك . وجرّب ذلك منى الساعة ، فإن وجدتنى أروغ وأعتل فدونك ، فحاجتى الآن أن تخبرنى بذنبى . قال : مالك من ذنب ، وما من القسمة بدّ . فأقام عنده يناشده إلى نصف النهار ، ثم أقام يومه ذلك إلى نصف الليل يناشده ويطلب إليه .

فلما طال عليه الأمر ، وبلغ منه الجهد ، قال له : حدثنى عن وضعك أطباق الرطب وبسطك الحصر فى السكك ، وإحضارك الماء البارد ، وجمعك الناس على بابى فى كل جمعة ، كأنك ظننت أنا كنّا عن هذه المكرمة عمياً ، إنك إذا أطعمتهم اليوم البرنى أطعمتهم غداً السُّكَّر ، وبعد غد الهلباثا[1] ، ثم يصير ذلك بعد أيام الجمع فى سائر أيام الأسبوع ، ثم يتحول الرطب إلى الغداء ، ثم يؤدى الغداء إلى العشاء ، ثم تصير إلى الكساء ، ثم الأجداء ، ثم الحملان ،

---

(١) الهلباث : ضرب من التمر لعله من جوده ، البرنى : نوع جيد منه ، والسكر : نوع من الرطب شديد الحلاوة .

ثم اصطناع الصنائع . والله إنى لأرثى لبيوت الأموال وخراج المملكة من هذا ، فكيف بمال تاجر جمعه من الحبات والقراريط والدوانق والأرباع والأنصاف ؟ !

قال : جعلت فداك تريد أن لا آكل رطبة أبداً فضلا على غير ذلك ؟ وأخرى فلا والله لا كلتهم أبداً .

قال : إياك أن تخطىء مرتين : مرة بإطاعهم فيك ، ومرة فى اكتساب عداوتهم ، اخرج من هذا الأمر على حساب ما دخلت فيه ، وتسلَّمْ تسلمْ .

ويبقى بعد أن عرضنا هذه النماذج من أقاصيص الجاحظ الفكهة أن نشير إلى براعته فى تحريك الأحداث فيها ، ودقته فى تصوير شخصياتها ، وقد بدا ذلك بوضوح فى قصة المسجديين ، وهى فى الواقع مجموعة قصص ولكن الجاحظ جعلها متتابعة الحلقات وأشاع فيها جوا من الجدية المصطنعة ، يتمثل فى تعليقات القوم بعد كل تجربة تعرض عليهم من قِبَل المقتصدين ، وهى تعليقات تدل على الإعجاب والاغتباط بسماع تلك الفوائد ، فتراهم يقولون بعد أن سمعوا قصة صاحب الحمار والماء العذب : « هذا بتوفيق الله ومنّه » ، أو ما صنعوه بعد أن سمعوا قصة مريم الصناع ، وحكاه عنهم الجاحظ بقوله : « فنهض القوم بأجمعهم إلى جنازتها ، وصلوا عليها ، ثم انكفئوا إلى زوجها فعزّوه على مصيبته وشاركوه فى حزنه » ، أو قولهم بعد أن سمعوا قصة صاحب النخالة يؤيدونه فيما يقول : « صدقت ، مثل هذا لا يكتسب بالرأى ولا يكون إلا سماويا » .

وجملة القول أن الأدب الفكاهى عند الجاحظ قد استمد دعائم ارتقائه الفنى ، من تلك الظواهر التى اكتملت له ، وحرص أبو عثمان على توفرها فيه ، وهى — فى اعتقادى — تتلخص فى النقاط التى أشرت إليها فى هذا الفصل : دقة التصوير ، وإصابة الوصف ، واصطناع السخرية ، وواقعية اللغة ، وأخيراً البراعة فى حبك القصص المرحة التى تستهوى القارىء بما تحفل به من عناصر التشويق والطرافة والتصوير الساخر .

الفصل الخامس

الأدب الفكاهي عند البشري وأثر الجاحظ فيه

تناولنا فى الفصول المتقدمة الأدب الفكاهي عند الجاحظ ، وألممنا بظواهره وموضوعاته وخصائصه فى شكله ومضمونه ، واستبان لنا من خلال ذلك أن الجاحظ كان رائداً فى هذا الميدان ، فهو كما قلنا أستاذ الأدب الفكاهي عند العرب غير مدافع .

وقد رأينا أن الكتابات "فكاهية" عنده تحفل بالمضامين الهادفة : وتعالج قضايا فكرية وأخلاقيـــة واجتماعية من زاوية خاصة وبأسلوب متميز ومن ثم فإنها لا تقل فى قيمتها أو تأثيرها عن الألوان الراقية من الكتابات الأدبية الجادة .

ولا ريب أن هذا النمط من الأدب الجاحظى كان موضع إعجاب واستحسان على مر العصور ، ولا ريب أيضاً أن كثيرين من أدباء العربية وكتابها قد تأثروا به وحاولوا النسج على منواله .

ولقد عرف الجاحظ لدى القراء والمتأدبين فى عصرنا الحديث منذ مطلع عصر النهضة ولقيت كتبه ومؤلفاته عناية من المحققين والعلماء ، وحرص القائمون على إحياء كتب التراث القديم على نشر مؤلفات الجاحظ ورسائله فكان لها صداها القوى وتأثيرها النافع على جيل الرواد الذين كان لهم الفضل فى النهوض بأدبنا فى العصر الحديث .

وكان من أبرز الأدباء الذين تأثروا بالجاحظ وسلكوا دربه وحملوا طابعه الأديب الشيخ عبد العزيز البشرى[١] ، « جاحظ العصر الحديث »[٢] .

والحق أن البشرى جدير بأن يقرن بالجاحظ ، وبخاصة فى جانب ميله إلى الدعابة واصطناعة للسخرية فى كتاباته ونوادره ، ثم فى تصويره المجتمع المصرى فى عصره بطوائفه وطبقاته ، وعاداته وتقاليده ، وما حفلت به حيوات الناس فى زمنه من ألوان النقائص والرذائل والميول والمشارب . . .

والبشرى لا يخفى تأثره بالجاحظ ، ولا ينفى إعجابه به وإكباره لأدبه فقد سأله مندوب مجلة المعرفة عن الأدباء الذين تأثر بهم فكان من جوابه أن قال : « أقدر الجاحظ وأستطيع أن أؤكد لك بأنى أتأثره وأرتضى صحبته

---

(١) ولد عبد العزيز البشرى عام ١٨٨٦م فى بيت اشتهر بالعلم والدين وكان والده سليم البشرى عالما من كبار علماء الدين تولى منصب شيخ الأزهر مرتين فى حياته . التحق عبد العزيز بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة ، وكان ولوعا بالأدب شغوفا بالشعر منذ بداية عهده بالطلب ، فعكف على دواوين الشعراء ومؤلفات الكتاب . وكانت كتب الجاحظ من أحب الكتب إلى نفسه وعندما تخرج فى الأزهر عين سكرتيرا بوزارة الأوقاف فوزارة المعارف ، ثم نقل إلى القضاء الشرعى وظل يتنقل بين المحاكم الشرعية حتى عين وكيلا للمطبوعات ثم مراقبا عاما لمجمع اللغة العربية حتى لقى ربه عام ١٩٤٣ م . « عبد العزيز البشرى للدكتور جمال الدين الرمادى ص١٠، ١١ » (بتصرف) .

(٢) هذا الوصف جاء فى قصيدة للأستاذ محمد عبد الغنى حسن قيلت فى رثاء البشرى منها :

جيل من الأدب الرفيع توارى ... وهزار روض فى البلاغة طارا
قد كان ملء الأرض صوتا عاليا ... فى المشرقين ومنطقا مختارا
ياجاحظ العصر الحديث ألا ترى ... ركن البيان يكاد أن ينهارا

وأفاخر بها وأحرص عليها ، لقد عرفته منذ أمد بعيد ، عرفته من الساعة التى أدركت فيها أثرا للقراءة القائمة على الدرس والتحقيق ، وكلما زادت قراءاتى له استوعبت فيه ألوانا جديدة من الروعة والجلال والإمتاع .

إن أسلوب الجاحظ قد أربى على الغاية ، جودة وأناقة ورشاقة وجمال توقيع وهو الأسلوب الجزل السهل الذى ينشده لنفسه كل كاتب يريد السكمال لقلمه والإبداع فى إنتاجه . وإن الجانب الفكاهى فيه ليصور لنا مبلغ قدرة الرجل الفائقة على التهكم كلما أراد أن يسخر وكلما شاء أن تحز نقداته فى القلوب .

... ولست أعلم أن هناك كاتباً قبله استطاع أن يبلغ هذه الجودة فى كشف السوءات الاجتماعية هذا الكشف الرائع حتى يعلم الناس مقدار ما فيها من بشاعة وتشويه »[١] .

ولعل فى هذا الرأى الذى صرح به البشرى ما يغنينا عن الإفاضة فى التعليق والبيان إذ يدل على افتتان الرجل بأدب الجاحظ عامة ومعالجاته الساخرة خاصة .

وكان هذا دأب البشرى كما ذكر الجاحظ . فعندما عرض البشرى لموضوع القصص فى الأدب العربى استطرد فتحدث عن كتابات الجاحظ مثنيا عليها منوها بها فتراه يقول :

« والجاحظ رجل واسع العلم شديد التمكن من النفس ، قوى الحجة ، يملك من ناصية البيان مالا أحسب أن قد ملكه بعده كثير . فهو لا يزال يمهد على لسان هـذا الرأى ، ويفلج بالحجة ، ويمعن بالشاهد فى عقب الشاهد

---

(١) مجلة المعرفة العدد ١٨ أكتوبر ١٩٣٢م

ويضرب المثل بعد المثل ، حتى يأخذ عليك مخانق الطرق ، فلا تجد بعدها محيصا من الإذعان والتسليم ، ثم يبعث لك الطرف الآخر ، فما يزال يدافع تلك الحجج ، وينقض ما قام بين يديك من الأدلة والشواهد ، ثم ما يزال يبريها ويفريها حتى تستحيل هباء يتفرق فى الهواء ، ثم يردك إلى مكانك الأول ، ثم يعود بك إلى الثانى . ويظل يرجحك بين الرأيين المختلفين بقوة حجته ، وسلاطة بيانه . حتى إذا قدر أنه دوّخك وأرضى شهوته بإذلال ذهنك ، رحمك فعدل بك إلى حديث آخر ! »(١) .

وهذا الذى ذكره البشرى عن طريقة الجاحظ فى عرض الآراء ومناقشة الأدلة من أصدق ما قيل فى تحليل هـذه الطريقة وتصويرها تصويراً دقيقاً . وتجدر الإشارة إلى أن للبشرى رأياً فى أقاصيص البخلاء فى كتاب الجاحظ يتسم بالموضوعية وصواب الاستنتاج وقد سقنا كلاما قريباً منه عندما عرضنا لدور الجاحظ الفنى فى حكايات بخلائه . يقول البشرى مقرراً وجهة نظره حول هذا الموضوع :

« ولا أظن أن الجاحظ كان صادقاً فى أكثر ما روى عن بخلائه . ولعله إن صدق فى أصل بعض فقد غلا فيه غلوًّا كبيراً ، وعلى كل حال ، لقد كان الرجل فى تصويره وتخييله ، وتشبيهه وتمثيله بارعا تام البراعة ، رائعا بالغ الروعة »(٢) .

* * *

---

(١) المختار للبشرى ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥

كان البشرى أديبا من نمط خاص ، ثقف فنون الأدب العربى ، ووعى من أسرار العربية وكنوزها الشىء الكثير ، وكان إلى جانب ذلك عالما أزهريا ، درس علوم الفقه والعقيدة والمنطق وغيرها مما كان يدرس فى الأزهر على عهده ، وكانت للبشرى شخصية علمية متميزة ، تفيد من القراءات المتنوعة ، وتعى روح الثقافة الأوربية ، وإن لم يكن البشرى من المتعمقين فيها أو الملمين بلغاتها . غير أن الذى يميز البشرى أنه كان رجلا ناضج الفكر ، رحب الصدر ، متحررا فى نظرته إلى الأمور ، لا تستهويه الآراء السابقة ، ولا يعرف الجمود ، ولا تصدر آراؤه وأقواله عن تعصب أو تحزب ، بل تأتى وليدة النظر المتأمل والتفكير السديد .

وكان البشرى فضلا عن ذلك كله ذا طبيعة مرحة ، ولوعا بالدعابة والمعابثة ، شغوفا بالأفاكيه ، يتقن التصوير الساخر ، ويلذ له أن يصطنع هذا الأسلوب فى المقالات المتنوعة التى كانت تنشرها له الصحف والمجلات ، والأحاديث التى يلقيها عبر المذياع ، أو فى المناسبات الخاصة التى يدعى إليها .

ولقد شاع عن البشرى هذا الميل إلى المرح وحب الدعابة ، وكانت دعابته تصدر عن نفس مفطورة على هذه النزعة ، فلم يكن فى مرحه أو دعابته متصنعا أو متظرفا بل كان ذلك عن سجية طبع عليها ، فغدا بين إخوانه وصدقائه واسطة العقد فى مجالسهم وأنديتهم ، تمتعهم طرائفه ، وتروقهم دعاباته ، وتلذ لهم معابثاته ، فإذا غاب عنهم افتقدوه وإن أبطأ عليهم طلبوه ، كان هذا شأن البشرى على الرغم من أنه لم يكن وسيم الطلعة ، ولا جميل القسمات ، فلم يكن الإعجاب به راجعا إلى شىء من الوسامة أو القسامة ، لأنه لم يرزق من ذلك سوى القليل أو لعله أقل القليل ، وإنما كان الإعجاب به لرقة طبعه ، وعذب حديثه ، وخفة روحه .

وأستطيع بعد هذا التمهيد أن أحدد جوانب التقاء البشرى بالجاحظ فى مجال الأدب الفكاهى فى الأمور التالية :

أولا : كان للبشرى اهتمام واضح بالفكاهة ، وبحث متأمل لظواهرها وأصولها ، شبيه بما رأيناه لدى الجاحظ فى الفصل الذى وقفنا فيه على فلسفة الفكاهة عنده .

والحق أن البشرى متأثر فى جانب من آرائه حول الفكاهة بأبى عثمان الجاحظ ، بل نستطيع أن نقول إنه نقل عنه ، وحذا حذوه فى خلطه الهزل بالجد ومزاوجته بين البحوث والمقالات الجادة ، والأخرى الطريفة ذات الطابع المرح . فنراه – على سبيل المثال – يقول فى بداية حديث له بعنوان « التطفيل والطفيليون » :

« بحسبنا ثلاث محاضرات متوالية ، كلها فى جد القول ومره ، فى زمت هذا الصيف ووقدة حره . فلنستروح هذه المرة بشىء من التفكيه ، لنجعل الراحة لذلك الجد جامات . فنحن على هذا فى الجد دائماً ، حتى إذا انحرفنا يوماً إلى شىء من العبث أو ما يشبه العبث ، فلنرفّه به أنفسنا ونسلى عنها لنعود لشأننا ممدودى الأنفاس مشدودى المتون . »(١) .

وللبشرى حديث ضاف وبحث مستوعب فى « النكتة المصرية فى العصر الحديث » يقول فيه :

« . . . إذا أنا خصصت النكتة المصرية بالذكر ، فذلك لأنى لا أعرف

---

(١) المختار ج ٢ ص ١٤١

أمة من الأمم العربية الأخرى أحسنت هـذا النوع أو برعت فيه براعة المصريين » .

ويستطرد البشرى فيذكر أن اللون الذى يعنيه من النـكتة ليس هو النوع المبتذل الذى يعتمد على التلفيق بين صدر معنى من المعانى وبين ألفاظ ثابتة لمعان أخر . . وهو النوع الذى يعرف عند العامة (بالقافية) .

إنما يريد ذلك النوع الذى تلهمه دقة التفطن ، وسرعة الخاطر ، وحضور البديهة ، والقدرة على لطف التصوير . . يقول البشرى : ولقد يكون للنـكتة من هذا اللون مغزى بعيد قد تعيي إصابته على الرجل الحـكيم ، وقد يكون لها من قوة الأثر مالا يكون لمقالة الـكاتب مهما أطال وأسهب ، ولا لقصيدة الشاعر مهما أضفى وأسبغ » .

وهذا النوع من النـكتة يتطلب فى المرء خـلالا منها — حسب تعبير البشرى — : « الذكاء اللماح ، وسرعة الخاطر ، وقوة اللسن ، وأعنى بها هنا القدرة على التصوير والتخييل باللسان ، والعـــلم بأحوال الزمان والبيئة والأشخاص ، وشيء من الجراءة ، ولا أحب أن أقول : شيء من الحياء . وأخيراً لا بد لها من خفة الروح ، فلا خير فى نكتة تجيء على لسان ثقيل .

والرجل الذى أوتى هذه المواهب يلحظ الانحراف مهما دقّ ، فى خلق المرء أو فى خلقه ، أو فى بعض عمله أو حديثه ، أو فى أى شيء من الأشياء على جهة العموم . فسرعان ما يسوى له بخياله صورة مكبرة ، مهما تبعد فى شكلها عن الأصل فهى متصلة به بسبب أو بأسباب . . »(١) .

(١) المختار ج ٢ ص ١٢٥

ويرى البشرى أيضاً أن النكتة نوع من التصوير (الكاريكاتورى)، وأنها ترتبط فى وقعها وتأثيرها بما لها من إيحاء وبما يحيط بها من ظروف وملابسات، فالنكتة «قد تكون بارعة رائعة، حتى لتهز مجلس السمر هزاً، بل لقد ترج البلد كله من الإعجاب والضحك رجًّا، ومع هذا إذا تناولها المتناول بعد عام أو عامين أو أقل من ذلك أو أكثر لم يجدها شيئاً، ذلك بأن للظروف والأشخاص، والمناسبات والملابسات أثراً قوياً فى براعة النكتة، فإذا حال شىء من ذلك وتغير، ضعف بقدره أثر الكلام، وإذا كان هذا مما يلحق الشعر الجيد، والنثر المصفى المتخير، فإنه فى باب التظرف والتندر أظهر وأبين»(١).

ويختتم البشرى حديثه عن النكتة المصرية فى العصر الحديث قائلا:

«وإياكم أن تظنوا أن من ذهب لهم فى هذا الباب صيت وذكر، كانوا من جماعات المتبطلين أو الجهال، أو الذين يتعرضون بهذا لمعروف الناس، أستغفر الله، فلقد كان فيهم الأديب الكبير، والكاتب العظيم، والشاعر الفحل، والسرى الملىء. وفيهم من برعوا فى أشرف المهن، وأعودها بالكسب.. على أنهم لم يتخذوا هذا ويصطنعوه، رغبة فى إضحاك الناس، بل ليتضاحكوا هم به على الناس، والويل كل الويل لمن تزل به القدم بين أيدي هؤلاء، فإنهم يتطارحونه مهما جل قدره، كما تتطارح الكرة بصوالج الجبارين من اللعباء..»(٢).

وهكذا نرى البشرى إلى جانب ميله الطبعى للفكاهة، يتتبع بعقله وفكره

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٦.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦، ١٢٧.

أصولها ومتطلباتها وخصائصها وتأثيرها ، كما كان يعرف عن كثب طائفة من حذاق هذا الفن وفرسانه ويحلل طباع بعضهم تحليلا دقيقاً كما فعل مع إمام العبد ، وحافظ إبراهيم ، وغيرهما من ذوى الطبيعة المرحة والميل إلى المزاح والمعابثة .

* * *

ثانياً : هناك تشابه بين بعض موضوعات الأدب الفكاهى عند البشرى والموضوعات التى أدار الجاحظ حولها معظم فكاهاته ، ويتمثل هذا التشابه فى الموضوعات التالية :

(ا) الحديث عن البخل وتصوير مسالك البخلاء :

وللجاحظ فى هذا الباب سبق مشهور ، كما لمسنا فى تحليلنا لكتاب البخلاء ، أما البشرى فكانت معالجته لهذا الموضوع محدودة نسبياً ، وإن شارك الجاحظ فى اهتمامه بتصوير نوازع البخلاء ، وتأثره به واضح غير أن الذى يميز ما كتبه البشرى أو أذاعه حول هذا الموضوع أنه لم يكرر ما قاله الجاحظ ، وإنما أضاف إلى النماذج التى ساقها ، وأشار إلى أنماط من البخل ونوعيات من البخلاء غير تلك التى أبرزها الجاحظ فى « بخلائه » . وهذا نموذج من تصوير البشرى لنوعية طريفة من البخلاء ، وهى نوعية البخيل الذى يقتر على أهله وأبنائه ، فى حين يوسع على نفسه ويتمتع بألوان الطيبات .

يقول البشرى — بعد أن ذكر تأثره بكتاب البخلاء للجاحظ وإعجابه به وقراءته له أكثر من مرة — :

« على أنى وقفت على لون من البخل لعلك كنت تراه غريباً ، وأحسبك

الآن تراه غير قريب ؛ فلقد جرت سنة البخلاء على أن يقتروا على أنفسهم وعلى عيالهم معا ، فإذا كان لولد أحدهم شيء من السطوة عليه استخرج منه الأموال فأخرجها له مرغما مغلوباً ، لا إيثاراً للولد ، وبقى هو فى شحه على نفسه ، ارتكاباً لأخف الضررين .

أما النوع الذى وقعت عليه من البخل ، وتحسبه غير مألوفاً ، فلقد كان لى صاحب دلت به السنّ ، ورزق الضدين (الغنى والعيلة) . فقد اجتمع له من زوجاته الثلاث مالا يقل عن اثنى عشر ولداً . ولا بدّ له ، رضى أو كره ، من أن يحملهم .

وكان - رحمه الله - رجلاشديد الحرص عظيم الطمع يجمع الدانق على الدانق، ويرصّ المليم على المليم ، ولا يكاد كيسه يتفصد إلا فى بناء دار أو ضيعة، ولكنه كان يخالف سنة البخلاء فى خلة واحدة : ذلك بأنهم - كما تعرف - يقترون على أولادهم وعلى أنفسهم معا ، ولكن هذا إنما كان تقتيره موجهاً على عياله وحدهم . . أمّا نفسه فكان لا يحقن فيها شهوة ، وبخاصة شهوة الطعام، بل لقد كان يبلغها من هذا غاية مناها !

وكان - رحمه الله - إذا سافر ركب القطار فى الدرجة الأولى ، أما أولاده فيشحنهم فى (الترسو) أو ما دون (الترسو) لو كان له دون !

وإذا لبس فمن (تفصيل) « ديليا » أو « فستا » ، أما بنوه فعليه أرخص القماش ، وعلى أمهاتهم (التفصيل) !

وإذا نام افترش الحرير ، وتوسد ريش النعام ، أما البنون ففى (الكليم) متسع للجميع .

أما الطعام ، وما أدراك ما الطعام ! فالخبز أو لا يصنع فى البيت كل أسبوع على ألا ينفى من الطحين إلا النخالة ، وسائره للعجين !

وأما الإدام فهيهات للحم أن يزور داره (العامرة) ... فللغداء الكوامخ (السلطات) أشكالاً وألواناً ، و (لأم الفلافل) وأخواتها من الخوان المقام الكريم !

وأما العشاء ، فله فيه صنع بديع ! يدخل وقت العشاء فإذا صاحبنا قد أعدّ بعدد الأولاد ملاليم ، فإذا اجتمعوا إليه مستشرفين لعشائهم ، قال لهم : (اللى ياخد مليم مايتعشاش ، واللى يتعشى ما ياخدش مليم ! مين اللى ياخد مليم ؟) . ويدفع أحدهم فيقول : (أنا !) وعلى حكم غريزة التقليد فى الغلمان يسرعون فيتصايحون : (أنا ! أنا ! أنا) ، فيدفع إلى كل واحد منهم مليمه ، وكفاه الله مؤونة العشاء ! أعنى عشاء الأطفال !

وبعد ، فلـ[...]صة أخرى : ذلك بأنه زعم للزيات القائم على رأس الشارع أن لديه حملاً يربيه ويحب أن يسمنه ويجزل لحمه وشحمه ، وليس يعقد له ذلك ويسرع فيه أفضل من خلاصة (تصافى) قدر الفول يطعمها فى الصباح ، فيحتفظ له الرجل (بخلاصة) قدر العصر ، ويبعث إليه بها فى الصباح الباكر ، والأولاد بعد نيام ، فيفرغها فى قدر كبيرة ، ويعالجها بقدر من الخل ، ويصفّف حولها كسر الخبز التى أفضلها الأولاد فى غداء أمسهم حتى إذا هبّوا من النوم ، وأحشاؤهم تتنزّى من شدة الجوع ، فتواثبوا إلى الطعام ، صاح فيهم : (اللى عاوز يفطر يجيب المليم !) ، فلا يسع كلا منهم إلا أن يطرحه إليه ، مواتاةً لإلحاح البطن ، وإيثاراً للعافية . فسرعان ما تعود الملاليم إلى عشها ، وتعتصم بوكرها ! » .

ثم يستطرد البشرى فى وصف مسلك ذلك البخيل النادر المثال فى تناوله للطعام واصطفائه للألوان المتخيرة منه ، يتكيّب بعضها عند (اللبان) أو (الحلوانى) أو (الحاتى) أو فى المنزل وحده بعد أن يغلق الباب على نفسه . .

والذى يهمنا أن نشير إليه بصدد تلك القصة التى صور فيها البشرى طباع ذلك البخيل تقبعه لمواقفه من أولاده واستقصاؤه لها وتصويرها تصويراً متقناً ، يقطر سخرية ، ويفيض طرافة وغرابة ، وعلى الرغم مما نلحظه فى القصة من مبالغة ففى اعتقادنا أنها مبالغة تصويرية قصد بها إلى السخرية ، وتعجيب القراء من أمره ، ويبقى مضمونها بعد ذلك صحيحاً وواقعياً .

ومن التصوير الطريف لنماذج البخلاء ما حكاه البشرى عن رجل آخر يمثل صنفاً مغايراً لما ذكره فى القصة المتقدمة لأنه على العكس منه إذ يقتر على نفسه فقط ، ولا يبالى بما ينفقه أولاده .

وها هو ذا البشرى يصوره بأسلوبه الساخر يقول[١] :

« كان معروفاً بسعة العلم ، وشدة العقل ، وكان شديد البخل ، قاسياً فى الضن على النفس ، وقد ألحق فى شباب سنه بخدمة الحكومة ويده لاصقة بالتراب من شدة الفقر ، فكان يدخر وظيفته الشهرية كلها إلا ما يكفى لشراء رغيف (وطعميتين) كل يوم . وأما الثياب فلا يكفى لتغييرها أن تحول ، أو يلحقها النصول ، أو أن تبلى خيوطها ، أو أن تتخرق عروضها ، فهو لا يتركها بل هى التى تتركه حين يدركها الفناء . . وعاش كذلك يجمع الدرهم إلى الدرهم ويضم المليم إلى المليم ، حتى اجتمع له فى غاية عمره نحو أربعمائة فدان من أجود أطيان الدنيا ، وحوالى عشرة آلاف الجنيه أرضخها[٢] للوارث نقداً وعداً .

وليس شىء من كل هذا بعجيب ، إنما العجيب ما استكشف من خلاله

---

(١) المختار ج ٢ ص ٢٠٢

(٢) أرضخها : هيأها وأعدها .

فى مؤخرات سنى حياته . ذلك أنه ظهر ... أن الرجل لم يكن يحب المال ولا يحفل به ، ولا يعنيه أن يجتمع له منه كثير ولا قليل ذلك أن كل هم الرجل وكل خلقه أنه لا يحب المتاع ، ولا يطيق التقلب فى النعمة ، فإذا أكل أصاب أيسر ما يمسك الحوباء ، وإذا لبس ففى ستر الجسم بالخلق غناء ... وذلك أن بعض من يحملهم لاحظوا بعد طول ما اعتروا به من ضيق الحياة وشظف العيش فى كنفه ، أنه لا يضن عليهم بشىء مما يطلبون من الأموال ، بالغة ما بلغت ، على شرط أن يستأثروا بالمتاع بها وحدهم . فلا يشركوه فى طعامهم ولا فى شرابهم ، ولا يفرغوا عليه مثل أرديتهم ، ولا يرقدوه على مثل فرشهم ولا يدخلوا عليه شيئاً من رفاهيتهم ولين عيشهم !

بقيت هناك مشكلة .. وهى أنهم يحبون أن يستصبحوا بالكهرباء ، وهو لا يطيق أن يطلق النظر على ضوئها ؛ فكيف الحيلة فى هذا الإشكال ؟ لقد ظلت المشادّة دهراً بين الطرفين ، حتى عرض هو حلا معقولا : ذلك أن يستأجر لهم داراً فى حىّ المنيرة ذات غرف وأبهاء ، ليزينوها بما شاءوا من ثريات الكهرباء . على أن يدعوه فى مثواه ببير المش ، يستصبح بالزيت ويفترش القش ! » .

ويعلق البشرى على قصة ذلك البخيل مؤكداً أن المؤلفين فى علم الأخلاق فى حاجة إلى أن يراجعوا كتبهم لاستقصاء مثل هذه الأحوال ، وضبط الكلام فيما تدل عليه من الغرائز والخلال .

وهكذا نرى البشرى يعالج ظاهرة البخل ، ويصور طبائع البخلاء ويرسم لهم بقلمه الساخر صوراً طريفة ، ويقع فى أثناء تتبعه لطبائعهم على أنماط لم يقع عليها الجاحظ فيما عرفه من بخلاء عصره ، هذا فضلا عن اشتراكه معه فى بعض النماذج الأخرى ، كنموذج البخيل الذى أورد قصته فى المختار

تحت عنوان « اقتصاد سياسى » وهو يذكرنا بأصحاب المينة الذين وصفهم الجاحظ فى قصة أبو سعيد المدائنى .

(ب) التطفيل والطفيليون :

وهو أيضاً من الموضوعات التى اشترك فيها البشرى والجاحظ .

وقد نال هذا الموضوع اهتمام البشرى وكأنه كان معنياً بالتأريخ لهذه الظاهرة وتتبع أخبار هذه الطائفة قديما وحديثا فتجده فى المختار يتحدث عن تاريخ التطفيل قديما عند العرب ، ثم يخصص مقالا آخر للتطفيل والطفيليين فى الجيل الماضى ، وأخيراً يتحدث عن التطفيل عند معاصريه .

ومن أمتع ما سطره البشرى فى هذا الباب ما صوّر به شخصية الشيخ حسن غندر ، يقول عنه البشرى[1] :

« لقد كان الشيخ غندر من مباهج مصر ، وآية يتيه بها ذلك العصر على كل عصر . نعم ، لقد كان المفرد العلم فى (فنّ) التطفيل ، وهيهات يجود الزمان بمثله (فإن الزمان بمثله لبخيل) !

وبعد أن يسرد البشرى على قرائه وصفا دقيقا للشيخ غندر فى شكله العام وتأنقه فى ملبسه واعتنائه ببزته ينتقل للحديث عن ملامح شخصيته وطابع طفيليته فيقول :

« وبعد ، فلقد كان إلى هذا التأنق والتجمل ، عذب الروح ، فكه الحديث حسن المحاضرة ، حلو المنادمة ، حاضر النكتة ، عالماً بأخبار الناس ، محيطا

(١) المختار ج ٢ ص ١٥٥ وما بعدها .

بصفاتهم وأسبابهم وشمائلهم ، يحدثك عن أجوادهم وبخلائهم ومن يهش للأضياف منهم ، ويتبسط على طعامه معهم . ومن يغلق دون الضيف بابه ، ويقيم عليه إذا حضر الغداء أحراسه وحجّابه .

. . . وإنه ليحدث عن عادة كل عين من أعيان البلد فى طعامه وشرابه ، ويعرف ما يؤثر من ألوان الطعام وما يكره . . . وهو إذ يحدثك فى هذا ترى شدقه دائم الاختلاج ، وشفتيه لا تفتران عن التحلّب ، شأن من ألح عليه الجوع ، وهو يرى أشهى الطعام بين يديه ، ولكن لا سبيل له ألبتة إليه !

ولقد يجول الشيخ غندر فى غير حديث الطعام ، فيبدع فى حديثه ويلون فى سمره ، ويفتن فى إيراد النكتة كلما دعت مناسبات الكلام ...

وكيفما كان الأمر ، فإن هذا الرجل ، ما يزال إنسانا وديعا أنيس المحضر ، ظريف المجلس ، حتى يحضُرَ الطعام . فإذا حضر جُنَّ جنونه ، وثار ثائره وخيفت بوادره ، وتغير خلقه ، وتنكرت صورته ، وأمسى منظره مفزعاً مرعباً . ولو قد رأيته وهو يفرى الفرى ويلتهم اليابس والطرى ، خلت أن كل شىء فيه قد استحال فما : فهو يأكل بفمه ويأكل بعينيه ، ويأكل بأنفه ، لا تراه يلوك لقمة أو يحرك للمضغ ضرساً . بل إنه ليكورها ثم يقذف بها فى حلقه ، فتكاد تسمع رنينها فى قرارة بطنه . فإذا فرغ من شأنه ، وما بيسده أن يفرغ لبث يتلمظ ساعة . ثم ارتد إنسانا وادعاً ظريفا يلون السمر ، ويفنن الحديث تفنينا »[1] .

---

(١) المختار ج ٢ ص ١٥٥ : ١٥٧ (بتصرف واختصار) .

ولا يخفى على القارىء ما بين هذه الفقرة الأخيرة التي صور البشرى فيها نهم الشيخ غندر وما يعتريه إذا حضر الطعام ، وبين تصوير الجاحظ اشره على الأسوارى[١] الذى وصفه بأنه كان إذا أكل ذهب عقله وجحظت عينه وسكر وسدر ... وعصب ولم يسمع ولم يبصر . . إلخ .

(ج) المكدون (الشحاذون) :

وهم الذين تحدث عنهم الجاحظ عندما عرض قصة خالويه المكدى ، وقد أشرنا هناك إلى أن حديث الجاحظ عن هذه الطائفة ووصفه لها يتجاوز مجرد كونهم جماعة من المساكين الذين يستجدون الناس ، ويطلبون ما بأيديهم ، بل إنهم فى نظر الجاحظ عصابة من الشطار كل همهم استنزاع المال من أيدى الناس بشتى الحيل وصنوف الخدع ، ولعل البشرى كان يقصد إلى هذه النوعية فى حديثه عن الشحاذين ، فهو لم يتناول الموضوع من زاوية إنسانية تعالج الظاهرة وتدعو المجتمع إلى علاجها بل اكتفى بتصوير إلحاح الشحاذين وإقلاقهم للناس في جوف الليل أحيانا وفى الصباح الباكر أحيانا أخرى ، وكأن البشرى لم يكن يعنيه فى تصويره للشحاذين سوى التدليل على صفاقة بعضهم واحترافهم للتسول وكونهم وصمة اجتماعية ينبغى التخلص من عبثها .

وللبشرى حديث عنهم فى المختار تحت عنوان «الشحاذون» صور فيه إلحاحهم وإقلاقهم للناس بأسلوب طريف يقول فيه :

« لا أعرف أن الدنيا تجمع طائفة من الناس أشد أثرة ولا أورم أنوفا ولا أعظم غرورا ، ولا أبلغ تتايها على صرف الأيام من سادتنا الشحاذين

---

(١) البخلاء ص ٧٩ .

المصريين ! وأقول سادتنا الشحاذين لا على حكم التأدب ولا على جهة التهكم ... بل لأنه الحق الذى لا شك فيه . فهم سادتنا حقا . ونحن مواليهم حقا . فإن كان ما زال يختلج فى نفسك الريب فاسمع هذه القصة :

ثم سرد البشرى قصته مع الشحاذين وإزعاجهم له خصوصا فى شهر رمضان الذى كان من دأبه أن يحيى لياليه بالسهر إلى السحور ، ثم يهب من غده مبكراً ليسافر إلى الزقازيق حيث كان يعمل قاضيا هناك . وفى صبيحة يوم شديد البرد كثير المطر يعالج السير فيه بصعوبة ليصل إلى محطة الترام فيفاجأ بمن يجذبه من كتفه ويصك سمعه بصوته النكير قائلا : (فطور العواجز عليك يا رب !.. من فطر صايم له أجر دايم ، هنيالك يا فاعل الخير) !!! ثم يسرد البشرى حواراً غاضبا دار بينه وبين ذلك الشحاذ الثقيل انتهى بأن سمع منه البشرى ما يكره من شتم وسب . ثم ينتقل البشرى فيذكر قصة طريفة وقعت لبعض أصدقائه يقول :

« ومما يذكر فى هذا الباب أن صديقنا المرحوم رفيق بك العظم كان قد علت به السن ، وألحت عليه العلل ، وهو من يوم نشأته مضعوف هزيل ، مرهف الأعصاب . وقد امتحن فوق هذا كله بالأرق . وكان فى مؤخرات أيامه يسكن (عمارة البابلى) من أحياء السيدة زينب . ويدخل فى فراشه فى الساعة التاسعة ، فيظل يتطاول إلى النوم ويستدرجه بألوان التكلف والتصنع إلى ما بعد الساعة الثانية صباحا .

وبينا هو ذات ليلة يستدرج النوم ، والأرق يدافعه حتى دخل فى ذلك البرزخ الممدود بين النوم واليقظة (السنة) ، تلك الرقعة التى تتلمع لك فيها لأحلام . وتعى فى الوقت نفسه ما يدور حولك من الكلام . بيناه على تلك

الحال ينتظر الدخول فى النوم التام ، إذا هاتف يهتف من جانب الطريق بصوت كأنه قصف المد ، أو زمزمة الرعد : (رغيف عيش وصحن طبيخ لله !) وإذا الرجل يهب من سنته على أظافره ، وإذا الحدث يعجله عن اتخاذ حذائه ، فيجمز[1] حافيا على السلم ، حتى إذا خرج إلى الطريق أهاب (بمولانا الشحاذ) : «يخرب بيتك ! مين اللى بيصحا دلوت الساعة اتنين بعد نص الليل ويسخن لك الطبيخ ؟ قول إدونى رغيف عيش وحتة جبنة ، أو شوية زيتون ، أو حتة صربة يبقى شىء معقول ! » وتركه وصعد ليتصيد نومه من جديد !

* * *

ثالثا : يعد أدب البشرى من أصدق صور الأدب الحديث تمثيلا للبيئة المصرية ووصفا لظواهر الحياة بها من جوانبها المتعددة . فالبشرى كما عبر الدكتور طه حسين فى تقديمه لكتاب «قطوف» : من أشد كتابنا المعاصرين عكوفا على حياتنا المصرية ، وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص ، وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة وسرائرها ، وأشدهم تمثيلا لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت دمه وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع قلمه حين كان يكتب .

ونستطيع أن نؤكد أن البشرى يشارك الجاحظ فى هذه الخاصية فكلا الرجلين معنى بتسجيل ما تضطرب به حيوات الناس فى عصره دقيقها وجليلها ، بحيث نطالع فى أدب كل منهما صوراً دقيقة للحياة من مختلف نواحيها .

---

(١) أى يجرى .

ولعلنا لمسنا فى حديث البشرى عن ميزات الجاحظ ، وخصائص أدبه والذى نقلنا عنه آنفا ـ أنه يقدر فى شيخ الأدباء تصويره لعصره ، وكشفه لسوءات مجتمعه بصورة لا يطاوله فيها كاتب غيره . وكأنى بالبشرى قد طمح إلى تلك الرتبة ، ووضع نصب عينيه ذلك الهدف فجرى فى ذلك الميدان أشواطا ، وحقق فيه سبقا متميزا .

وتجدر الإشارة إلى أن كتابات البشرى التى تصور الظواهر الاجتماعية فى عصره تكتسب أهمية خاصة بحسبانها قد اضطلعت بتسجيل جوانب دقيقة فى الحياة المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وقبل حدوث تلك الانعطافة الحضارية التى شهدتها البلاد ، بعد أن ازداد اختلاط أهلها بالأوربيين ، وفتنوا بحضارتهم ، وأغرموا بتقليدهم وترتب على ذلك اختفاء بعض العادات التى كانت موجودة من قبل ، ولا ريب فى أنها كانت مرحلة دقيقة ، شهدت تجاذبا بين القديم والجديد ، وخلفت وراءها رصيداً متراكما من المتناقضات .

ومن أهم ما يميز كتابات البشرى فى هذا الجانب أنه حرص على تسجيل كثير من تلك الظواهر التى كان مصيرها الفناء ، والأخرى التى استحدثت أو التى كتب لها البقاء . فترى البشرى وهو يعرض لموضوع من الموضوعات ، أو يصور ظاهرة من الظواهر لا يفتأ يعقد المقارنات بين ما هى عليه فى عصره وما كانت عليه فى الجيل الماضى . فعل ذلك فى حديثه عن عادات الناس فى الأعراس ، كما فعله فى حديثه عن « التطفيل والطفيليين فى الجيل الماضى »(١) وأيضا فى « أدب العراك فى الجيل الماضى »(٢) وغير ذلك من الموضوعات .

(١) المختار ج ٢ ص ١٤٩

(٢) المرجع السابق ص ١٣١

ولم يفت البشرى فى تحليله لظواهر الحياة فى مصر على عهده أن يتناول بالغمز والسخرية طائفة من العادات المرذولة ، والأخلاق الذميمة ، كما لم يغب عن فهمه أن يوجه نقداته اللاذعة ، وتهكمه المرّ إلى دعاة التفرنج الذين يسرفون فى تقاليد الغربيين ، ويبالغون فى التشبه بهم ، ويعدون ذلك مناطاً للفخر ، ومؤشراً على التقدم والعصرية .

وهذا جانب من مقال للبشرى بعنوان « من خلق الله »(١) يعيب فيه على نموذج من الشباب المولع بتقليد (أبناء الذوات) يقول فيه :

« يظهر أن عند بعض الناس كثيراً أو قليلا من الشك فى أنهم موجودون ، أو على الأقل إنهم يشكون فى أنهم من ضمن الناس ، فهم دائبون جاهدون كل يوم بل كل ساعة فى جمع الأدلة على إثبات وجودهم ، أو على إثبات أنهم ناس من الناس . ومن هؤلاء المساكين شاب حدرت له الظروف مالا جليلا يهيء له العيش فى أخفض عيش ، والتقلب فيما شاء من النعم » .

ويأخذ البشرى بعد ذلك فى تصوير الشاب وإبراز ملامحه وأسلوبه فى ملبسه وعنايته بهندامه و « شاربه » و « طربوشه » و « سيجاره » .

ثم يذكر أنه سأل عن قصته واستقصى أخباره فاستبان له أنه « رجل شغف بأن يكون فى أولاد (الذوات) فهو يأخذ إخذهم ويتشبه بهم فى شكلهم ودلّهم ، وفى مشيتهم ، وطعامهم وشرابهم ولهوهم وعبثهم ، وسائر أطوارهم . فهو يسمع أن ابن فلان باشا (يفصل) الثياب عند (ديليا) فيطلب (ديليا) ويسأله أن (يفصل) له (بدلة) كالتى فصلها أخيراً لفلان . ثم يسمع أن الأمير فلاناً

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٩

(يفصل) عند (سيفاد) ، فيمضى من فوره إلى (سيفاد) ويسأله ما سأل دبليا أمس . ثم يرى فى إصبع فلان بك خاتماً من الزمرد ، فلا يزال يتحرى ويستخبر حتى يهتدى إلى الجوهرىّ الذى باعه فيشترى مثله . ويرى فلاناً بك يدخّن السيجار ، فيدور ويبحث ويستقصى حتى يهتدى إلى أغلى السيجار ، فلا يفارق بعدها فمه أبداً ، وما هو (بخرمان) ، ولا هو ممن يتذوقون الدخان !

وينهى البشرى تصويره لسلوك ذلك الرجل المخدوع بالتعبير الساخر عن مصيره المحزن ونهايته الطبعية يقول :

« بعد كتابة هذا الكلام . . انتهى إلىّ أن الرجل مع الأسف ، قد لحقه [illegible] ، وحلت به الفاقة ، وركبته الديون ، فباع السيارة وكل ما أحرز من كرائم الجواهر ونفيس الآثار . . . وسكن فى الحارطة الجديدة بعد الزمالك ، ولم يحتفظ من آثار العز إلا بسيجار واحد (يركبه) فى فمه ليخوض به فى ديو الطين ، بعد التخطر فى شارع المناخ وشارع عماد الدين ! » .

وللبشرى مقال طريف فى موضوع عانى منه المخلصون من العاملين فى الوظائف الحكومية وما زالوا يعانون منه إلى أيامنا هذه وهو حافل بالسخرية والتلميح ، وهذا الموضوع يتمثل فى جماعة الوصوليين الذين يتقنون صناعة التزلف إلى الرؤساء ، والتفنن لتخطى رقاب الآخرين والظفر بالمراتب الوظيفية العليا دونهم ، يقول البشرى تحت عنوان « فن الوظيفة »[1] :

« تدور فى هذه الأيام كلمة (الفن) ، تنفض نفضاً على كل من له عرق فى تصوير أو نحت أو غناء أو تمثيل . إذ هناك (فنّ) أدق وأبرع وأجدى

---

(١) المختار ج ٢ ص ٢٥٠

على (الفنان) وأنفع . ومع هذا لم يعرض له النقدة ، ولا احتفوا به فى مقالاتهم . وإن شئت أن تعرفه ، فهو « فن الوظيفة » .

و « فن الوظيفة » هذا ــ شرح الله صدرك ، وأطال عمرك ، ورفع فى المناصب قدرك ــ من واسع الأطراف ، رحب الأكناف ، مؤصل الأصول ، مفصل الفصول ، مقعّد القواعد ، مبسط الأمثلة والشواهد ، لا يحذقه الفتى إلا بعد الجهد وشدة المطاولة ، وسهر الليالى فى التفكير والتدبير ، وتمرين الأعضاء فى كيفية القعود والقيام ، والسكوت والكلام ، والدخول والخروج ، والهبوط والعروج ، والتشييع والاستقبال ، والخنوع والاستبسال ، والانقباض والتبسيط ، والرضا والتسخط ، وإرهاف الأنف حتى يشم الريح على أميال ، ويدرك مدى تحول الجو من حال إلى حال .

وهذا (الفن) الجليل لا يكفى فى تحصيله والتبريز فيه كل هذا بل لا بد من التهيؤ والاستعداد ، وأن يكون للمرء طبيعة وموهبة ، شأن سائر الفنون الجميلة !

ومن أول مزايا هذا (الفن) الجليل تخليد (الوظيفة) للفنان على الزمان ، ولو عصفت أحداث السياسة بلداته جميعا ! ومنها الوثوب فى الدرجات مثنى وثلاث ورباع ، وخماس وسداس وسباع .

وإنى لأعرف طائفة من هؤلاء (الفنانين) مهد لهم (الفن) الدّرج كله ، فتناولوه وثباً فى كل وزارات : عدلى ، وثروت ، ونسيم ، وسعد . . . حتى بلغوا القمة بدقة الفن وحده ، ناعمين بثقة الجميع ، ولا إيمان لهم بواحد من الجميع !

ألا حيا الله هذه الهمم ، وحيا معها تلك الذمم ! ! .

والمقال كما نرى آية من آيات التصوير الساخر فى أدب البشرى ، وهو يطلعنا على حذقه لهذا اللون من الكتابة ، وبراعته فى تلوين الصور الساخرة واستقصاء المعنى من كافة جوانبه وتقليبه على شتى وجوهه ، ولا أظن أن أديباً مصرياً استطاع أن يبلغ فى التهكم من تلك النوعية من الوصوليين ما بلغه البشرى فى هذه المقالة .

ويحسن بنا أن نلم فى هذا المقام بجانب من اهتمامات البشرى الأدبية التى ساق آراءه حولها بأسلوب ساخر ! ومنها مقال بعنوان « شعراؤنا والندابات » يعد من أبرع ما كتب فى الزراية على الشعراء المتكافين الذين يهتبلون المناسبات ليقولوا فيها الشعر ، فإن لم توجد مناسبة اختلقوها اختلاقاً ، إرضاء لشهوتهم فى التصايح بالشعر ، وقرع آذان الجمهور بالقريض ، دون أن يكون لما يقولونه أساس من حس شعرى أو موقف نفسى ، وكأن الأمر لا يعدوا فى نظر أولئك الأدعياء سوى أن يحتشد الناس ليجد المتشاعرون فرصتهم فى نثر عباراتهم الطنانة ، وأقوالهم الجوفاء .

يقول البشرى فى المقال المشار إليه :

« الحمد لله لقد أصبح عندنا « طقم » شعراء لا يقل استعداداً ولا سرعة إجابة فى المهمات عن « موسيقى حسب الله » ، تمشى فى « الزفف » كما تمشى فى « الجنائز » ، وتعزف دائماً — على حسب الأحوال — بالمطرب والمحزن من الألحان !

أمسى « طقم » الشعراء من ضروريات الحياة عندنا ، يخف للدعوة ، وينشط للشعر هناء لكل معرس ، وترحيباً بكل قادم ، وتكريماً لكل مولع بالظهور ، ورثاء لكل ميت . ولا يبعد أن تتسع غداً هذه المهنة فيحل شعراؤنا محل

جماعة « شوبش » فى « صبيحة » العرس . و « صلوا عليه سعيد » بين يدى موكب « المطاهر » !

. . . على أنه سيأتى ، وقد يكون قريبا جداً ، ذلك الوقت الذى يكلف فيه صاحب « المهم » الفراش باحضار « طقم » شعراء ، كما يستحضر عادة « طقم » الموسيقى ... [illegible] كثير ممن لا شأن لهم ولا جليل خطر فى هذه الحياة . بل لقد كان بعضهم ممن تعف عنهم كل فضيلة ، وتكبر عليهم أحقر المزايا ، ولم تتعلق منى أهليهم ولا أصدقائهم بأن يعقدوا لهم يوما للرثاء . ومع ذلك بادر طقم الشعراء أنفسهم فأعلنوا بلسانهم الدعوة إلى يوم الأربعين لسماع مراثى فلان وفلان . وفى بعض الأحيان اضطلع هؤلاء « الشعراء » بما تقتضيه « الحفلة » من النفقات ، حتى يسمعوا الناس أشعارهم ، ويتباروا فى إعلان بلاغتهم ! » .

وفى موضع آخر يعرض البشرى للحديث عن النقد الأدبى فى العصر الحديث فيلاحظ عليه توزع المشتغلين به شيعا وأحزابا وإسرافهم فى التحسين والتقبيح بلا تروّ ولا تمييز يقول البشرى تحت عنوان « فوضى النقد »[1] :

« ... الواقع أن النقد عندنا أصبح فوضى ما تفتأ تستفحل وتستحصد حتى بات يخشى أن يُضل الناشئين عن كل أدب صحيح ، إذا لم يأت بالفعل على كل أدب صحيح . وإننى لأتقدم إلى تقرير هذا الواقع المر وتبيينه ، لأننى امرؤ لا أنتمى والحمد لله لشيعة ، ولا أتصل بحزب من هذه الأحزاب الأدبية القائمة فى البلاد الآن .

(١) المختار ج ١ ص ٨٣ وما بعدها .

وعلة هذا[١] فى تقديرى ، تعود إلى السُّمار الذى لحق كثيراً من متأدبى هذا العصر إلى طلب الشهرة ونباهة الذكر من أخصر طريق . وليس فى هذه الطرق أخصر ولا أيسر من التهويش وصب المديح جزافا ، وهيل الثناء وإضفاء النعوت ، وإفراغ الألقاب بغير حساب !

والأديب لا يستطيع أن يضطلع لنفسه بهذا وحده ، مهما يجد ويسرف فى انتحال الأسماء والألقاب .. بل لا بد له فى بلوغ الشأو وإدراك الغاية من الاستعانة بغيره على مهمه .

وكلما كثر هؤلاء الأنصار والأعوان ، هان بالضرورة إحراز الشهرة فى أقرب آن . وهؤلاء الأعوان لا ينهضون لهذه الخدمة بغير ثمن عينى ، أى بدون أن يبادلهم صاحبنا المديح ويقارضهم الثناء . ومن هنا كان للأدب عندنا هذه الأيام أحزاب وشيع أشبه ما تكون بالشركات المالية يساهم فيها الجميع ، فتعود جدواها على الجميع !

هذا شاعر خالد ! وهذه شاعرية جبارة ! وهذا المعنى من وحى السماء ! وهذا فلان يؤدى رسالة الأدب إلى العالم . .

مهلا رويداً أيها الناس ، فلقد والله ابتذلتم النعوت وأرخصتم الألقاب ، ومالها لا ترخص ولا يلحقها أشد الوكس وقد أصبحت لا تدل فى أكثر الأحيان إلا على كل تافه وكل هزيل !

وبعد فلقد تجود بعض القرائح بالشعر الخالد ، ولقد تصل الشاعرية إلى مرتبة الجبروت . ولقد يكون فينا اليوم ، ولقد ينجم فينا غداً من يستحق

---

(١) الإشارة والتمليل هنا لفوضى النقد .

بنبوغه وارتفاع مواهبه شيئا من هذه النعوت والألقاب ، فكيف ندعوه ؟ وبماذا ندل على موضعه ؟ وما الذى نميزه به من سائر المشتغلين بالآداب ؟ » .

وهكذا تجول نظرات البشرى الثاقبة فى كل زاوية من زوايا الحياة فى عصره وهكذا يغدو قلمه الساخر مبضعا لاستئصال الأدواء التى يعانى منها المجتمع سواء فى أنماط الناس السلوكية أم فى قضاياهم الفكرية وأنشطتهم الأدبية والفنية .

* * *

رابعا : لجأ البشرى فى أدبه الفكاهى ، وتصويره الساخر إلى استخدام الألفاظ العامية والعبارات الدارجة ، لما لهذه وتلك من إيحاءات خاصة ، يستطيع أن يبلغ عن طريقها غاياته فى إشاعة المرح ، وإضفاء الطابع الساخر على كتاباته وتعليقاته .

والبشرى فى هذا الجانب متأثر أيضا بالجاحظ مقتد به يقول فى حديث له عن النكتة المصرية فى العصر الحديث(١) :

« . . . وهنا أرجو أن ترخصوا لى فى أن أتكلم ما دعت الحاجة بالعامية الخالصة ، لأن النكتة إذا سبكت فى العربية الخالصة فقد ينضب ماؤها ويحول بهاؤها وإنى لأذكر أننى قرأت للإمام الجاحظ شيئا فى هذا المعنى . وأين نحن من إمام البيان غير مدافع . وأين بياننا من بيانه ، وأين تجويد أقلامنا من عفو لسانه ؟ » .

---

(١) المختار ج ٢ ص ١٢٣

وهناك ملامح أسلوبية مشتركة بين البشرى والجاحظ من أبرزها وأظهرها :
إيثار اللغة الواضحة ، والألفاظ الدالة ، والتأنق فى الصياغة ، واصطناع الأسلوب الموقّع ، الذى يحفل بالرنين الموسيقى عن طريق الموازنة بين الجمل ، والإكثار من إيراد الألفاظ المترادفة ، والكلمات المتقابلة واستجلاب السجع الطريف ، ومن أمثلة ذلك فى أدب البشرى التصويرى قوله وهو يصف سلوك « الطباب » وهو الطفيلى : و « الطباب » وقاك الله شر البطنة ، لا يقنع بالوجبة على المائدة ، بل إنه ما يكاد يرفع يده عن غاية الطعام ، حتى يهرول فى التماس مائدة أخرى فى العرس نفسه ، أو فى عرس غيره . . . حتى لقد يوالى بين ست وجبات أو سبع فى ليلة واحدة . . . كأن معدته نحتت من حجر أو قدت من حديد ، وحق فيها « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » ؟ ! .

ولعل القارىء المتأمل قد اتضح له من هذا النص ومن النصوص الأخرى التى سقتها آنفاً مدى التقارب بين البشرى والجاحظ سواء فى المنزع العام وطريقة التفكير ، أم فى أسلوب المعالجة وطريقة الصياغة .

وكأن جيل الرواد فى مطلع نهضتنا الأدبية الحديثة أبى إلا أن يطاول أعلام المتقدمين فى شتى المجالات ، فظهر من الشعراء : البارودى وشوقى وحافظ ليعيدوا إلى الأذهان ذكريات : أبى تمام وأبى نواس والمتنبى والبحترى وابن زيدون .. الخ . كما أثمر ذلك الجيل عبد العزيز البشرى ليجدد ذكرى الجاحظ . . .

وهكذا بلغت المسيرة الناهضة غايتها ، وحقق الطامحون إلى المجد الأدبى مآثر دفعت بهم إلى مصاف الأعلام المتقدمين ، وكتبت لهم خلود الذكر فى سجل النابهين .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

(١) البخلاء : الجاحظ ـ تحقيق طه الحاجرى ـ طبعة دار المعارف السادسة

(٢) البخلاء : الجاحظ ـ شرح أحمد العوامرى وعلى الجارم ـ طبعة وزارة المعارف سنة ١٩٣٩ م

(٣) البيان والتبيين : الجاحظ ـ تحقيق هارون ـ طبعة مكتبة الخانجى الرابعة

(٤) الحيوان : الجاحظ ـ تحقيق هارون ـ طبعة البابى الحلبي الثانية

(٥) رسائل الجاحظ : الجاحظ ـ تحقيق هارون ـ طبعة مكتبة الخانجى

(٦) رسالة التربيع والتدوير : الجاحظ ـ تحقيق فوزى عطوى ـ طبعة الشركة اللبنانية للكتاب

(٧) المختار : عبد العزيز البشرى ـ طبعة دار المعارف الرابعة

ثانيا : المراجع :

(٨) أدب البشرى : د. جمال الدين الرمادى ـ طبعة مطبعة الخانجى بالقاهرة

(٩) أدب الجاحظ : حسن السندوبى ـ الطبعة الأولى ١٩٣١ م

(١٠) أدب المعتزلة : د. عبد الحكيم بلبع ـ طبعة دار نهضة مصر الثالثة

(١١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية : د. مصطفى الشكعة ـ طبعة مكتبة الأنجلو ١٩٦٨ م

(١٢) أخبار الحمق والمغفلين : ابن الجوزى ـ طبعة دار الآفاق بيروت

(١٣) البرصان والعرجان والعميان والحولان : الجاحظ ـ تحقيق د . محمد مرسى الخولى ـ طبعة دار الاعتصام ١٩٧٢ م
(١٤) الجاحظ ـ حياته وآثاره : د طه الحاجرى ـ طبعة دار المعارف الثالثة
(١٥) الجاحظ معلم العقل والأدب : شفيق جبرى ـ القاهرة ١٩٤٨ م
(١٦) الجاحظ : حنا الفاخورى ـ دار المعارف بيروت ١٩٥٩ م
(١٧) الجاحظ والحاضرة العباسية : د . وديعة طه النجم ـ مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٥ م
(١٨) سخرية الجاحظ من بخلائه : د . محمد بركات أبو على ـ مكتبة الأقصى عمان ١٩٧٤ م
(١٩) سيكلوجية الفكاهة والضحك : د . فؤاد زكريا ـ مكتبة مصر بالفجالة
(٢٠) ضحى الإسلام : أحمد أمين ـ طبعة مكتبة النهضة الثامنة
(٢١) الظرفاء والشحاذون فى بغداد وباريس : صلاح الدين المنجد ـ طبعة مطبعة الرسالة بالقاهرة
(٢٢) عبد العزيز البشرى : د جمال الدين الرمادى ـ سلسلة أعلام العرب ـ وزارة الثقافة والإرشاد القومى
(٢٣) الفكاهة فى الأدب : د . أحمد محمد الحوفى ـ طبعة مكتبة نهضة مصر ١٩٥٦م
(٢٤) مع بخلاء الجاحظ : فاروق سعد ـ طبعة دار الآفاق بيروت ١٩٨٠ م

ثالثا : الدوريات :

(٢٥) مجلة الرسالة : سنة ١٩٣٧ م
(٢٦) مجلة المعرفة : سنة ١٩٣٢ م
(٢٧) مجلة الهلال : عدد أغسطس ١٩٦٦ م

رابعا : بحوث غير مطبوعة :

(٢٨) الجاحظ وأثره فى النقد الأدبى وفى النثر الفنى خلال النصف الأول من القرن العشرين : د. عبد الفتاح على عفيفى – رسالة دكتوراه بمكتبة كلية اللغة العربية بالمنصورة

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
— مقـــدمة	٥
— من الجاحظ ؟	٩

الفصل الأول

الجاحظ وفلسفة الفكاهة	١١ — ٢٢
— حاجة الإنسان إلى الضحك	١٢
— الاعتدال فى الضحك	١٤
— إمتاع القارىء بالملح والفكاهات	١٦
— عدوى الضحك	١٩

الفصل الثانى

دلالات الفكاهة عند الجاحظ	٢٣ — ٣١
— مذهبية	٢٤
— سياسية	٢٧
— اجتماعية	٢٨
— تاريخية	٣٠
— أدبية	٣١

الموضوع | رقم الصفحة

الفصل الثالث

موضوعات الفكاهة عند الجاحظ ٣٢ — ٩٤

— القصاص والوعاظ ٣٣
— الأعراب ٣٩
— الحمقى والموله والأدعياء ٤٣
— المعلمون ٤٧
— البخلاء ٥١
— ملامح الإطار الفكاهي لكتاب البخلاء . . . ٦٨
— الاحتجاجات المضحكة ٦٨
— غرابة الأخبار وطرافتها ٧٤
— المغالطات المرحة ٨٠
— فكاهات شتى ٨٢
— الفكاهات العارية ٩٠

الفصل الرابع

الخصائص الفنية لأدب الفكاهة عند الجاحظ ٩٥ — ١٤٦

— براعة الوصف ودقة التصوير ٩٧
— السخرية والتهكم ١٠٧
— التربيع والتدوير ١١٢
— واقعية اللغة ١١٩
— الأقصوصة الفكاهية ١٣٤

الموضوع رقم الصفحة

الفصل الخامس

الأدب الفكاهى عند البشرى وأثر الجاحظ فيه ١٤٧ — ١٧٣

— جوانب التقاء البشرى بالجاحظ ١٥٢
— الاهتمام بالفكاهة ١٥٢
— تشابه الموضوعات ١٥٥
— أدب البشرى وتمثيله للبيئة المصرية ١٦٤
— أسلوب الأدب الفكاهى والساخر عند البشرى . . ١٧٢
— المصادر والمراجع ١٧٤

صواب الخطأ

هذا تصويب لبعض الأخطاء الواردة فى الكتاب ، واستميح القارىء العذر إذا وجدت أخطاء أخرى جاءت سهواً أو لم أفطن إليها .

ص	س	الصواب
٥	٣	سبب
٦	الأخير	يميزه
٢٤	١	نموذجا
٢٥	٣ قبل الأخير	تعقيب
٢٦	١٢	ألف عثمان
٢٨	٣	الحجاج
٣١	٧ قبل الأخير	والاكتمال
٣٣	١ هامش	من الأعراب
٣٥	٧	يعرف
٤٠	٢	لا يحسنان
٤٥	٤ هامش	تندر سائله
٤٦	١٢	الروايات
٥٦	٥ هامش	يجعلونه
٥٩	١	وتنقده
٦١	الأخير	طيبلغ
٧٠	٦	بأسلوبه
٧٢	٩	ثم جعله
٧٨	١٤	والطرافة
٨١	٧	الأشهر

ص	س	الموضوع
٨١	٩	أشهر
٨٣	١	وطبيعته
٩٣	٢ قبل الأخير	خلال
١٠١	١١	فى فكاهات
١٠٢	٢	القطعة
١٥٦	١	غريب
١٥٦	٥	مألوف
١٥٨	٢	وتصورها